الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

كلية الآداب واللغات

قسم : اللغة العربية وآدابها

شعبة بنية النص الصوفي في الشعر الجزائري الحديث
و المعاصر

مذكرة لنيل شهادة الماجستير موضوعها :

المعنى الجهادي في النص الصوفي الجزائري

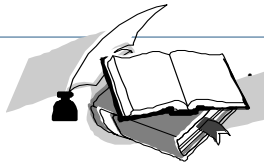

إعداد الطالب الباحث:

إشراف الأستاذة:

جعاط محمد

د/ خناثة بن هاشم

أعضاء لجنة المناقشة:

د محمد بن عمر – أستاذ التعليم العالي–..... . رئيسا (جامعة تلمسان)

د خناثة بن هاشم.–أستاذ محاضر(أ)–.....مشرفة ومقررة (جامعة تلمسان)

د بورديم عبد الحفيظ. .–أستاذ محاضر(أ)–.....مناقش (جامعة تلمسان)

د نورية شيخي –أستاذ محاضر(أ)–..... مناقش (جامعة تلمسان)

د أحمد حمودي –أستاذ محاضر(أ)–..... .مناقش (جامعة مستغانم)

السنة الجامعية 2011-2012 م – 1433-1434هـ

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدني على القيام بهذا العمل و أخص بالذكر الأستاذة الفاضلة الدكتورة بن هاشم خناثة على توجيهاتها ونصائحها الثمينة جزاها الله الخير الكثير . كما اشكر أساتذتي الذين يناقشون هذا العمل على وصبرهم وتوجيهاتهم وأرجو من الله عز وجل أن يحفظهم ويديم ستره عليهم .كما لا أنسى زميلي النبيل ألسيد عبد الحفيظ نيقرو مثال الرجولة والإيثار

حفظهم الله جميعا وجعلهم من الخيرين ان شاء الله .

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى أرواح شهدائنا الأبرار وإلى كل من قدم عملا نافعا لهذا الوطن الحبيب.

لكل طريق

مختصر ،ومختصر

طريق الجنة الجهاد

((الحسن البصري))

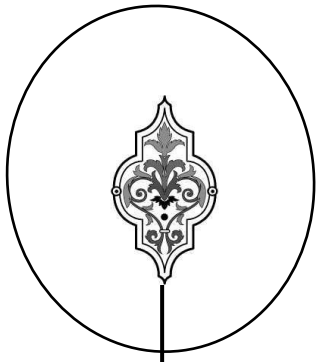

بسم الله الرحمن الرحيم

يفرض علينا السياق الثقافي السائد في العالم الإسلامي النظر إلى التصوف الإسلامي بصورة واقعية معقولة، فعندما تُذكَر كلمة "تصوف" في الأوساط الثقافية ينظر إليها بشيء من الريبة والشك فقد ربطها بعض الناس بالتخلف والشعوذة، وربما أخرجها البعض عن دائرة الإسلام، وقد تعتبر موروثًا قديمًا لا قيمة له وقد يربط التصوف في الجزائر بالعمالة للاستعمار وخيانة الوطن. والغريب أن هذه النظرات قد تناست العديد من الأمور، أهمها: أن قائد المقاومة الأول في الجزائر الأمير عبد القادر الجزائري وكذا المقراني وبوعمامة وكلهم من الصوفية، كما تناست إسهام التصوف في كافة المجالات الثقافية على مدار العصور الإسلامية، وتناست دور التصوف في نشر الإسلام في شتى بقاع العالم، وغفلت أيضا عن دور التصوف الأخلاقي والروحي والأدبي.

وإن نعيش اليوم في عالم يموج بصراعات متعددة... عالم تسوده تيارات سياسية ودينية متباينة متصارعة... عالم أغرقته سيطرة غرائزه المادية على كياناته الاجتماعية

والإنسانية في أمواج متلاطمة مضطربة كانت لها انعكاساتها الخطيرة على قيمه ومبادئه وثقافته بحيث لم يعد يعرف إلى أين أو متى ستنتهي به أزمته المادية الاقتصادية والإيديولوجية الراهنة.

وقد حافظت المجتمعات العربية ذاتها أيام الاستعمار الغربي عن كل مكوناتها الشخصية، و دينية ومنها المجتمع الجزائري الذي حاول فيه المستعمر طمس كل مكونات شخصيته; ولكن تغيرات سوسيولوجية وثقافية معقدة آلت إلى تغيرات جمة مست البناء الإستراتيجي العالمي ولم يكن المجتمع الجزائري بمنأى عن كل تلك التحولات.

فقد سيطرت المادية المتطرفة على هذا العالم، وظهرت فيه نماذج من التيارات الدينية المتشدد التي باتت تستغل المشاعر الدينية لدى البسطاء لصالح أغراضها السياسية، وظهر فيه الاهتمام بالشكليات دون الجوهر.

وإذا كان التصوف كما عرفه العلامة المنجوري هو علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء فان التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته فبعلم التصوف يتوصل إلى قطع عقبات النفس و كبح أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة .حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى.

وفى ظل هذه الظروف يظهر لنا مدى احتياجنا إلى التصوف. وكان لابد من أذكاء ينابيع الروح في المجتمعات الإسلامية عموما هذه الينابيع التي يمثل التصوف أحد روافدها الأكثر عمقا. وانطلاقا من هذه المعطيات أردت أن أبحث عن إسهامات التصوف في ترسيخ الرؤيا الروحية الكفيلة وحدها بتشخيص جميع الصعاب والانتصارات على الأزمات.

صعوبات البحث:

كأي باحث لايخلو العمل من بعض الصعوبات التي تعيق التقدم في انجاز البحث كما خطط له، ومن أهمها:

1- قلة وجود النصوص الصوفية التي تدعو إلى الجهاد ضد المستعمر وهذا يعود إلى:

أ- أن المستعر عمل على إتلاف كل النصوص الشعرية أو النثرية التي تدعو إلى مقاومته أو طرده من البلاد.

ب- ما يعرف بالحرب على المكتبات : حيث عمد الفرنسيون إلى إبادة المكتبات الجزائرية بعد التنكيل بأصحابها ومؤلفي كتبها . فلم تبق مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة التي تحدث عنها الرحالة والباحثون المسلمون، ومكتبات مساجد قسنطينة وتلمسان وبجاية وعنابة ومزونة .وقد كان . –بيربروبر – وغيره صرحاء حين أكدوا، وهم يحسبون أن التاريخ قد طوي تماما ولن يكشف عن أسراره. أن الضباط

الفرنسيون كانوا يشعلون غلاييهم بأوراق الكتب والوثائق في قصبة الجزائر سنة ألف وثمان مئة وثلاثون، وعلى مر العصور. [1]

ج- تعرض مثقفونا وشعراؤنا إلى مضايقات وتهديدات من المستدمر حتى لا يبرزوا آراءهم، يقول محمد العيد أل خليفة: (كنت أكتب وأكتم ما أكتب).[2] ويمكن أن يكون ماكتبه يومئذ قد أتلف أو حرق أثناء بعض الحملات الإرهابية التفتيشية التي كان المحتلون يشنونها على بيوت المواطنين ومحلاتهم، يقول الشاعر محمد العيد في هذا الصدد: (كنت قد نظمت أثناء الثورة بعض الشعر، وهو قليل لكنه قد ضاع منّي بسبب ظروف التحري التي كناّ نخضع لها في أغلب الأوقات).[3]

وقد كان اختياري لهدا الموضوع المتعلق بهذا الجانب الهام من حياة الصوفية مبنيا على الأسباب التالية منها :

01- اعتزازي بثورة بلادي الجزائر وما قدمته من مثل عليا في الشجاعة والبطولة والبسالة والجلد ،فأردت أن أكتشف ما هو حظ الصوفية من هذه المثل .

02-ميولي ورغبتي الشديدة للاطلاع على مناهج الصوفية و أساليبهم الأدبية خاصة التي تميزهم عن بقية الأدباء.

03- رغبتي الشديدة في معرفة حقيقة التصوف وتاريخه وأفكار أصحابه في المسائل الاجتماعية والأدبية و الدينية.

---

[1] - تاريخ الجزائر الثقافي د أبو القاسم سعد الله ط دار البصائر الجزائر 2009 ص328 ج 8

[2]- محمد العيد آل خليفة: دراسة تحليلية لحياته، تأليف أ/محمد ابن سمينة-ص105-

[3]- (ن م)

04- رغبتي أيضا في معرفة ترابط الصوفية الجزائريين بالجهاد لأن كلما تطرق إلى جهاد الصوفية إلا واتجهت الأنظار إلى الجزائر ، فيذكر الأمير عبد القادر الجزائري ثم الحركة السنوسية و إمامها محمد بن علي السنوسي الجزائري الذي حرر ليبيا من الاستعمار الايطالي و الانجليزي.

05 - اعتقادي بأن الوقت قد حان لاعتماد الخطاب الصوفي كمنهج للحوار مع الآخر على أساس أن هذا الخطاب يصب في اتجاه تغيير صورة الإسلام عند الغرب. وعليه فإن المحافظة على التراث الصوفي في الجزائر ليس من باب الدعم السياسي للتراث الصوفي وإنما هو مكسب ثقافي، وهو جزء لا يتجزأ من الهوية الوطنية بل وجزء صميم فيها.

06- خلو الأدب الجزائري (تقريبا) من دراسات النصوص الصوفية رغم كثرتها.

الدراسات السابقة:

من أسس البحث العلمي الرصين وأخلاقياته، أن كل جهد علمي حديث، يجب أن يبدأ من حيث انتهى من سبقه ويؤسس لمن يأتي بعده، وعليه فإن النظر بعين التقدير والاحترام والوفاء لجهود السابقين بالفضل، لهو من أوليات أخلاق الباحث العلمي لأن هذه الدراسات وبخاصة التاريخية منها، قد حظيت بقراءة واعية ونقاش علمي دقيق وفاحص من لدن أساتذة فضلاء ومشايخ التخصص. بناءاً على ذلك أذكر من هذه الدراسات

ما ذكره الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه الثمين تاريخ الجزائر الثقافي

وفي ما جاء في كتاب الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر لصلاح مؤيد العقب

منهجُ الدراسة:

إن المنهج الذي سرت عليه في كتابة هذا البحث يعتمد على الاستدلال وتقرير المسائل كما اعتمدت منهجية الدرس البنيوي الشكلاني مسارا يكشف عن القيمة البنائية والهيكلية للنص الصوفي الجزائري، من خلال فحص مكونات النصوص، وأنماط الأساليب فيها، وبنية النص، وصيغ اللغة، ووظائف الصورة . وبحسب مقتضيات المنهج –الذي حاولت الالتزام بمقولاته التي تفصح عن مستويات النص الصوفي في أحلى صوره وأكثرها وفاءً للنصِ الأصل ومؤلفه– كانت هيكليّة الدراسة قائمةً على مقومات هذا المنهج، ويمكن إبراز هدا في النقاط التالية :

1. قمت بالإطلاع على كتب التراجم التاريخية الصوفية ومصنفاتهم القديمة والحديثة ما أمكن.
2. قمت بتقرير المسائل الصوفية من مؤلفاتهم وأقوال أعلامهم أولا، ثم تحليل بعضها .
3. اطلعت على المخطوطات والرسائل الجامعية التي تناولت موضوع التصوف والتي تتحدث عن الجهاد بشكل عام ما أمكن لي ذلك.
4. اجتهدت في توثيق ما أنقله من كلام العلماء، وذلك بعودة إلى مواضعه في مصنفاتهم إن وجدت، أو من الكتب المعتمدة التي تهتم بنقل آثارهم.
5. حاولت جادا توفير جميع الكتب الصوفية بالبحث عنها في المكتبات العمومية واقتنائها.
6. لا أغفل استشارة أصحاب الفضيلة المشايخ وأساتذة الجامعات المتخصصين في التصوف وبنيوية النص وممن لهم صلة قريبة في الموضوع لأستنير بآرائهم وتوجيهاتهم ما أمكن ذلك.
7. نهجت فيما أنقله بالنص أن أجعله بين علامتي تنصيص، وأذكر المراجع في الهامش، أما المنقول بالمعنى: فلا يكون بين علامتي تنصيص، وأحيل إلى مراجعه في الهامش بلفظ (انظر).
8. إذا تكرر المرجع أو المصدر فلا أذكره وإنما أرمز إليه بـ (م.ن).

9. ترجمت للأعلام الوارد ذكرهم في ثنايا البحث ترجمة موجزة ما أمكن ذلك، عدا الصحابة رضوان الله عليهم إلا ما ندر، وتتم الترجمة عند ذكر المترجم له للمرة الأولى، وعندما يتكرر ذكره لا أشير إلى سبق الترجمة تفاديا لكثرة الحواش
10. ثبت المصادر والمراجع مرتبا حسب الحروف الهجائية لاسم الكاتب.
11. فهرست الموضوعات.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد و ثلاثة فصول

فالمقدمة تناولت مايلي:

أسباب اختيار الموضوع، وأهميته والدراسات السابقة له، ومنهج البحث وخطته.

أما مدخل ويتناول:

إشكالية المفهوم :

أعرف فيها معنى الجهاد ثم مفهوم التصوف

الفصل الأول : الأسس المعرفية بين الجهاد و التصوف

وتناولت فيه

1/ الجهاد أساس لتغلب2/ التصوف أساس الوحي.... 3/الشعر أساس الإبداع وهنا بينت القضايا التالية– التجديد والريادة –قضايا الشعر الصوفي–

الفصل الثاني : فخصصته إلى مثالية المعنى الجهادي :

و تطرقت فيه إلى تربية النفس على المثل العليا

ثم جهاد النفس في الصبر على الدعوة

الفصل الثالث :درست فيه الجانب الفني للنص الجهادي:

1–جمالية اللفظ

2- جمالية الصورة

وخاتمة أبرزت فيها ملخص البحث

المدخل

أهمية التصوف

يحتلّ التصوف جزءاً هاماً من تراثنا العربي الإسلامي بدليل وجود عدد كبير جداً من مخطوطات علم التصوف تزخر بها مكتبات العالم ولا غرابة في ذلك فقد شاع التصوف في العصور الإسلامية على اختلافها وأصبح في الجزائر اتجاهاً شعبياً مشكِّلاً بذلك تياراً فكرياً غالباً منجباً كوكبة من العلماء ممن خلّفوا آثاراً قيِّمة لا تزال تعتز بها المكتبة الجزائرية و العربية.

ومن قراءتي لما يكتبه بعض المعاصرين في هذا الميدان وجدت أن فريقاً منهم قد أصدر أحكاماً عشوائية وعمل على توجيه النقد غير المتبصر فزعم أن التصوف خمول وكسل ومظهر من مظاهر الضعف فزل بذلك أقلامه ومن أمثلة ما كتبوا "والصوفية لم نر لهم جهاداً ولم نقرأ لهم استشهاداً"(4) وقد تزعم هذا الاتجاه بعض المستشرقين ومشى على خطاهم في إشاعة هذا المعنى عصبة من الباحثين العرب المحدثين فصار ذلك هو الفهم السائد لدى الكثيرين فوجدت أن تصحيح

[4] --مجلة المعرفة العدد 328 مقال مطول بعنوان "الصوفية بين ترك الجهاد ووهم المجاهدة

هذه المفاهيم الخاطئة لهي ضرورة علمية وتاريخية حقة وضرورة قومية إنسانية. فقد استطاعت الصوفية الجمع بين الجهاد القتالي وجهاد النفس. لأن هناك ترابطاً وثيقاً بينهما فالجهاد الأكبر تهذيب النفس وتوجيهها تجاه الخير وهي بذلك تستعد لملاقاة العدو ومنازلته. أما النفوس التي انحرفت وسارت مع الهوى فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تصارع المعتدين(5)، وقد كانت الظروف المحيطة دافعاً قوياً للتركيز على طريق الحق والهداية. ويوضِّح ذلك ابن خلدون عند كلامه عن نشوء علم التصوف قائلاً: "وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"(6) فقد انتشرت نزاعات ملأت تاريخ العصرين الأموي والعباسي وغرق بعضهم في ملذات الدنيا وكان لهذا الفعل رد فعل من العبَّاد والزهَّاد فسلك قسم منهم طريق الوعظ والتذكير بالحياة الأخرى.

واندفع القسم الآخر للمرابطة في العواصم والثغور التي وجدوا فيها راحةً لنفوسهم وتخليصاً من مشاهد تطاحن الأحزاب والفتن والإقبال على الدنيا. وقد تسنى لهم في هذه الثغور ممارسة رياضتهم وجهادهم فأخذوا يستشعرون السعادة والرضا.

5- الجهاد في التفكير الإسلامي، د.أحمد شلبي. (سلسلة دراسات في الحضارة الإسلامية) القاهرة 1968 ص10
وحديث قول الرسول (ص) عن جابر(رض) رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" رواه الديلمي . راجع كشف الخفاء للعجلوني ج1 ص424.

6 - مقدمة ابن خلدون. دار إحياء التراث العربي، ط4، ص467.

وهم بذلك كما يقول: د.شوقي ضيف يصححون فكرة شاعت عن زهَّاد المسلمين وعبَّادهم أنهم كانوا سلبيين ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة وهو ظنٌ واهمٌ فإنَّ زهَّاد المسلمين لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلباً للاستشهاد في سبيل الله7.

ويفرد لنا ابن الجوزي[8] فصلاً خاصاً في كتابه (صفوة الصفوة) للزهَّاد والصوفية الأوائل الذين رابطوا في العواصم والثغور في القرن الثاني للهجرة منهم: أحمد بن عاصم الأنطاكي وكان يقال له (جاسوس القلوب) لحدة فراسته ويصفه بأنه من متقدمي مشائخ الثغور ومنهم أبو يوسف الغسولي الذي كان يغزو مع الناس بلاد الروم ركدلك **محمد بن موسى التلمساني** .[9]

و كثيرون أمثال أبي إسحق الفزاري وعيسى بن أبي إسحق السبيعي ويوسف بن إسباط وأبي معاوية الأسود10.

7تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) د.شوقي ضيف. مصر، دار المعارف 1972، ص403.

8-- ولد العلامة ابن الجوزي "بدرب حبيب" الواقعة في بغداد، واختلف في تاريخ ولادته:
قيل: سنة 508، وقيل سنة 509، وقيل سنة 510 هجرية، والأرجح أنه ولد بعد العشرة كما يظهر ذلك في بعض مؤلفاته في الوعظ، حيث يقول: أنه بدأ التصنيف سنة 528هـ، وله من العمر 17 سنة

9-محمد بن موسى التلمساني (606_683هـ=1209_1284م) القدوة الزاهد أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان المزالي التلمساني شمس الدين، ولد بتلمسان 606هـ=1209م وأخذ العلم منها، ثم انتقل إلى مصر له مؤلفات عديدة منها: أعلام الاجتهاد والعباد أهل اللإجتهاد بفصل الرباط والجهاد.

10صفوة الصفوة، ابن الجوزي. ت محمود فاخوري. بيروت دار المعارف ط 3 1985 6-تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي. دمشق دار الفكر. ج10 ص157 د.ت.

ومن أقران آنفي الذكر. ابن المبارك[11] الذي كان "كثير الانقطاع محباً للخلوة"[12] . وكان لا يخرج إلا إلى حج أو جهاد وقيل له ألا تستوحش فقال: "كيف أستوحش وأنا مع النبي وأصحابه".

ويعدّ إبراهيم بن أدهم إمام المتصوفين الروحانيين يذكره ابن عساكر بأنه كان فارساً شجاعاً ومقاتلاً باسلاً رابط في الثغور وخاض المعارك على البيزنطيين العدو الرئيسي للدولة الإسلامية الناشئة13. وقد أثنى على ورعه وزهده الإمام أحمد بن حنبل والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم واختلف في وفاته والأصح ما ذكره ابن كثير أنه توفي وهو مرابط في جزيرة من جزائر بحر الروم سنة (مائة واثنان وستون هـ) وقد صحب إبراهيم وأخذ عنه الطريق شقيق البلخي .

وفي الجزائر لاحظ الخبراء الفرنسيون أن زعماء حركة الجهاد التي ألفت محاربتهم انطلقت من الطرق الصوفية وخاصة المرتكزة منها حول الزوايا التي

11- عبد الله بن المبارك (ت 181هـ) قال عنه الخطيب البغدادي "وكان من الربانيين في العلم ومن المذكورين بالزهد.. خرج من بغداد يريد المصيصة –ثغر من ثغور الروم- فصحبه الصوفية..."

12 وفيات الأعيان، ابن خلكان. ت إحسان عباس. بيروت 1977 ج(3) ص32.

13انظر مقال إبراهيم بن أدهم. مجلة التراث العربي. العددان 11- 12 عام 1983 ج 10 ص 44(10) البداية والنهاية، ابن كثير. بيروت 1966. دار المعارف. ط(1 (10).

كانت منذ قرون تعتني بالجهاد عند الخطر وتعتني بالعلم والتصوف عند السلم، ومن أبرز تلك الطرق في القرن الماضي القادرية والرحمانية**14** وقد أنجبت الأمير:

عبد القادر لجزائري *الذي يعتبر (بلا منازع) شيخ المجاهدين في العصر الحديث فضلاً عن كونه من كبار صوفية عصره، وقد ترجم عبد الرزاق البيطار للأمير ترجمة عارف بفضله ونبله فقال: "هو الهمام الكامل العارف والإمام المتحلي بأعلى العوارف الراسخ القدم في العلم الإلهي والكاشف عن أسرار الحقائق حتى شهدها كما هي..."15.

14- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار. ت. محمد بهجت البيطار دمشق 1963 مطبعة المجمع العلمي العربي. ج2 ص 883.

*1805 -1885 م)

15تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، محمد عبد القادر الجزائري. الإسكندرية 1903 المطبعة التجارية ج1، ص9 .

إن المسلم الناظر في أحوالنا اليوم وما هي عليه من ضعف إيمان، وركون إلى الدنيا، وترهل في الهمم والأجسام، ويأس وإحباط ليَشعُر بالخطر على نفسه وعلى أمته، ويفرض عليه ذلك المبادرة مع إخوانه في وضع برامج علمية وعملية لإعداد النفوس وانتشالها من نومها أو موتها، وإحياء الجهاد وتحديث النفس به، ومما يجب لفت الأنظار إليه في مجال الإصلاح: تقديم كل ما يتعلق بتقويم الفكر، وتصحيح التصور، وتصويب منهج النظر والعمل. فهذا بلا ريب هو الأساس المكين لكل إصلاح يرتجى. إذ من غير المعقول أن يستقيم العمل على منهج سليم، والفكر غير مستقيم. كما قال الشاعر:

متى يستقيم الظل والعود أعوج؟

فمن ساء تصوره لأمر ما، فالمتوقع أن يسوء سلوكه في شأنه، فإن السلوك أثر للتصور، حسنا أو قبحا. يقول الشاعر محمد بن سليما[16]:

وَلاَتَكُنْ رَجُلاً بِالسُّوحِ[17] مَوْقِفُهُ وَكُنْ عَلِيقًا بِالسِّرِّ فِيكَ قَدْ بَطُنَا

فَإِنَّهُ الطَّلْسَمُ[18] اَّلذِي بِهِ عَلِقَتْ كُلُّ الطَّلاَسِمِ، وَهُوَ الكُلُّ يَشْمَلُنَا[19]

ومن هنا كانت المعركة الفكرية . التي تعنى بتصحيح الفكرة المعوجة، والمفاهيم المغلوطة . لها الأولوية وحق التقديم على غيرها. وهو من الجهاد

[16]- هو أبو محمد محمد بن عودة بن سليمان بن عبد الله المستغانمي مولداً ومنشأً قد كانت أسرته على جانب كبير من العلم والصلاح والتقوى ، كإبن عمه الصوفي الشهير الشيخ "قدور بن سليمان" وخاله الإمام "قارة مصطفى" مفتي بلدة مستغانم . حفظ في بدايته القرآن العظيم ثم تاقت نفسه إلى تحصيل العلوم الشرعية فأخذ نصيبه منها على يد خاله السالف الذكر قارة مصطفى المتوفى سنة 1957.

[17]-جمع ساحة.

[18]-هو السحر

[19]- الشعر الديني الجزائري دعبد الله الركيبي ص 57

باللسان والبيان، الذي ذكره الحديث النبوي: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم". 20

وللمعركة الفكرية مجالان أساسيان :

الأول: خارج الساحة الإسلامية، مع الملاحدة والمنصرين وكثير من المستشرقين الذين يهاجمون الإسلام: عقيدة وشريعة، وتراثا وحضارة، ويحاربون أي نهضة أو بعث على أساس الإسلام.

الثاني: داخل الساحة الإسلامية نفسها، لتصحيح الاتجاه في فصائل العمل الإسلامي، وترشيد مسيرته، وتصويب حركته، حتى تسير في الطريق الصحيح للهدف الصحيح. وسنقصر الحديث عليه، فإن إصلاح الداخل هو الأساس، وله الأولوية.

*التيار الخرافي يقوم على أسس أو خصائص يتفرد بها، منها:

-الخرافة في الاعتقاد -والجمود في الفكر - والتقليد في الفقه -والسلبية في السلوك.

*التيار الشكلي وهذا له خصائص غلبت على أكثر أتباعه تميزه أيضا، منها:

الجدلية في العقيدة - و الشكلية في العبادة - والظاهرية في الفقه - والجزئية في الاهتمام - والجفاف في الروح - والخشونة في الدعوة - والضيق بالخلاف.

*تيار الرفض والعنف و يقوم على رفض المجتمع كله بجميع مؤسساته، وله . رغم تميز جل أفراده بالحماس والإخلاص . خصائصه أيضا، منها:

20 - رواه النسائي وغيره

– الشدة والصرامة في الالتزام بالدين – والاعتزاز بالذات اعتزازا يؤدي إلى نزعة الاستعلاء على المجتمع وسوء الظن بالآخرين جميعا – وضيق الأفق في فهم الدين، وفهم الواقع، وفهم السنن الكونية والاجتماعية – و استعجال الأشياء قبل أوانها و المسارعة إلى التكفير بغير تحفظ – واتخاذ القوة سبيلا إلى تحقيق الأهداف.

*التيار الوسطي والذي يقوم على التوازن في فهم الدين والحياة والعمل لتمكين الدين، وله خصائص أيضا تميزه عن سواه، منها تأكيده وتركيزه على فقه الدين واتخاذ الجهاد سبيلا للدفاع عن حرمات المسلمين وديارهم .

فما مفهوم الجهاد و ماهي مقاصده ؟

***تعريف الجهاد لغة واصطلاحا*:**

هو بذل الجهد والوسع والطاقة، من الجُهْد بمعنى الوُسع، أو من الجَهْد بمعنى المشقة.[21]

يأتي بمعنى أعم وأشمل، يشمل الدِّين كله؛ وحينئذ تتسع مساحته فتشمل الحياة كلها بسائر مجالاتها و نواحيها وله كذلك معنى خاص هو القتال لإعلاء كلمة الله عز و جل.[22]

أما مفهوم " الجهاد " في الكتاب والسنة جاء بمعنى القتال و كذلك جاء بمعنى أعم و أشمل من القتال قال تعالى: (فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ([23]).

فالجهاد الكبير هنا ليس هو القتال، إنما هو الدعوة والبيان بالحجة والبرهان وأعظم حجة وبيان هو هذا القرآن، إنه حجة الله على الكافرين.

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهد الكفار والمنافقين..) [24]

وفي هذه الآية ليس المراد بجهاد المنافقين القتال، لأن المنافقين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر، و النبي صلى الله عليه وسلم لم يقاتلهم بل عاملهم بظواهرهم وحتى من انكشف كفره منهم كعبد الله بن أبي بن سلول لم يقتله صلى الله عليه

وسلم ولكن جهاد المنافقين يكون بالوسائل الأخرى، مثل كشف أسرارهم ودواخلهم وأهدافهم الخبيثة، كما جاء في القرآن قال تعالى:

---

[21] -التربية الجهادية في ضوء الكتاب والسنة مقال لعبد العزيز بن ناصر الجليل

[22] ن م

[23] -(1) الآية 52 من سورة الفرقان

[24] - الآية 73 من سورة التوبة

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)([25])

وتفسير هذه الآية: (الذين جاهدوا فينا) أي جاهدوا في ذات الله أنفسَهم وشهواتِهم،وجاهدوا الشياطين، وجاهدوا العدو من الكفار وأهواءَهم وجاهدوا العراقيلَ والعوائقَ، وهذا ما يسمونه الصوفية بالمجاهدة وهي في اللغة : اشتقاقاً من الجهد وهو الطاقة المبذولة لعمل معين [26]وقد أطلقت الصوفية على هذا النوع من العبادة المجاهدة وهي في اللغة وفي الشريعة الإسلامية: كل صراع بين الحق والباطل أريد به وجه الله سبحانه وتعالى قال تعالى: وَجاهَدوا في سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوالكمْ وَأَنْفُسِكِمْ) 27 . وقال تعالى :(وَجاهِدوا في اللَّهِ حَقَّ جِهادهِ)ِ28. قال الراغب الأصفهاني في كتابه (المفردات في ترغيب القرآن)([29]): الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهرة ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾([30]) وقوله: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾([31]).

ولا شك أن النفس الإنسانية قابلة لتغيير صفاتها الناقصة وتبديل عاداتها المذمومة وإلا لم يكن هناك فائدة من بعثة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ولا ضرورة لمن بعده من ورثته العلماء العاملين والمرشدين المصلحين.

---

[25] - الآية 69 من سورة العنكبوت .

[26] **- انظر : المعجم العربي الأساسي - ص160-161.**

[27] **التوبة : 30.**

[28] **الحج : 67.**

([29]) المفردات في غريب القرآن (208) مادة جهد.

([30]) سورة الحج الآية (78).

([31]) سورة التوبة الآية (41).

وإذا كان كثير من سباع الطيور والبهائم قد أمكن ترويضها وتبديل كثير من صفاتها فالإنسان الذي كرمه الله تعالى بالعقل وخلقه في أحسن تقويم من باب أولى.

وليس المراد من مجاهدة النفس (عند الصوفية) استئصال صفاتها بل المراد تصعيدها من سيء إلى حسن وتسييرها على مراد الله تعالى وابتغاء مرضاته.

فصفة الغضب مذمومة حين يغضب المرء لنفسه أما إذا غضب لله تعالى فعندها يصبح الغضب ممدوحا كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يغضب إذا انتهكت حرمات الله أو عطل حد من حدوده ولكنه حين أوذي في الله وضرب وأدمي عقبه يوم الطائف لم يغضب لنفسه بل دعا لمن آذوه بالهداية والتمس لهم العذر فقال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[32].

وكذلك صفة الكبر فهي مذمومة حين يتكبر المسلم على إخوته المسلمين أما حين يتكبر على المتكبرين الكافرين فتصبح هذه الصفة محمودة لأنها في سبيل الله وضمن حدود شرعه.

وهكذا معظم الصفات المذمومة تحول بالمجاهدة وتصعد إلى صفات ممدوحة.

فمجاهدة النفس فطمها وحملها على خلاف هواها المذموم وإلزامها تطبيق شرع الله تعالى أمرا ونهيا.

([32]) أخرجه البخاري (3477) ومسلم (1792) وأحمد (380/1 - 427) والطبارني (5694) وابن حبان (973) والفسوي في تاريخه (338/1) والهيثمي في مجمع الزوائد (117/6).

ويستدل على مشروعية المجاهدة بما يلي: من القرآن الكريم: قال تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[33].

قال العلامة المفسر القرطبي في تفسير هذه الآية (قال السدي وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال) وهذا يدل على أن المراد بالجهاد هنا هو جهاد النفس كما قال العلامة المفسر ابن جزي في تفسيرها: يعني جهاد النفس .

من السنة الشريفة: عن فضالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «المجاهد من جاهد نفسه في الله»[34].

وفي رواية «في طاعة الله»[35].

ويعتبر العلماء المجاهدة تزكية للنفس ومن هنا كانت المجاهدة فرض عين من باب: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

قال الشيخ عبدالغني النابلسي رحمه الله : المجاهدة في النفس عبادة ولا تحصل لأحد إلا بالعلم وهي فرض عين على كل مكلف[36].

([33][5]) سورة العنكبوت الاية (69).
([34]) أخرجه الترمذي (1621) وقال حديث حسن صحيح وأحمد (206) والطبراني في الكبير (797/18) وابن حبان (4706).
([35]) أخرجه أحمد (21/6) والحاكم (10/1 -11) وصححه ووافقه الذهبي.
([36]) شرح الطريقة المحمدية (323/1).

وأول مرحلة في المجاهدة عدم رضى المرء عن نفسه وإيمانه بوصفها الذي أخبر عنه خالقها ومبدعها ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[37] وعلمه إن النفس اكبر قاطع عن الله تعالى[38] كما أنها أعظم موصل إليه وذلك إن النفس حينما تكون أمارة بالسوء لا تتلذذ إلا بالمعاصي والمخالفات ولكنها بعد مجاهدتها وتزكيتها تصبح راضية مرضية لا تسر إلا بالطاعات والموافقات والاستئناس بالله تعالى.وينتقل بالمجاهدة إلى الصفات فيبدل صفاته الناقصة كالكبر والرياء والغضب... بصفات كاملة كالتواضع والإخلاص والحلم.

وبما أن طريق المجاهدة وعر المسالك متشعب الجوانب يصعب على السالك إن يلجه منفردا كان من المفيد عمليا صحبة مرشد خبير بعيوب النفس عالم بطرق معالجتها ومجاهدتها يستمد المزيد من صحبته خبرة عملية بأساليب تزكية نفسه كما يكتسب من روحانيته نفحات قدسية تدفع المريد لتكميل نفسه وشخصيته وترفعه فوق مستوى النقائص والمنكرات فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المرشد الأول والمزكي الأعظم الذي ربى أصحابه الكرام وزكى نفوسهم كما وصفه الله تعالى بقوله ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[39].

([37]) سورة يوسف الآية (53).

([38]) والقواطع عن الله تعالى أربعة: النفس والدنيا والشيطان والخلق أما عداوة النفس والشيطان فظاهرة وأما الخلق فملاحظة مدحهم وذمهم تعرقل سير السالك إلى ربه وأما الدنيا فالاهتمام بها وانشغال القلب بتقلباتها قاطع كبير عن الله تعلى ففي حالة الفقر تكثر هموم المرء فتشغله عن الله وفي حال الغنى ينشغل بزينتها وزخرفها عن الله تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) اما اذا أخرج حبها من قلبه فإنها لا تضره كما قال شيخ الصوفية سيدي عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى : أخرج الدينا من قلبك وضعها في جيبك أو في يدك فإنها لا تضرك.

([39]) سورة الجمعة الآية (2). ومن هنا نجد أن التزكية شيء وتعليم الكتاب والحكمة شيء آخر لذا قال تعالى (ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) ففرق كبير بين علم التزكية وحالة التزكية كما يلاحظ الفرق الواضح بين علم الصحة وحالة الصحة إذ قد يكون الطبيب الماهر الذي عنده علم الصحة فاقدا حالة الصحة ومصابا بالأمراض والعلل الكثيرة وكذلك الفرق ظاهر بين علم الزهد وحالة الزهد كالمسلم الذي عنده علم واسع بالآيات والأحاديث والشواهد المتعلقة بالزهد ولكنه يفقد حالة الزهد ويتصف بالطمع والشره والتكالب على الدنيا الفانية.

والذي يحقق النفع للمريد هو استقامته على صحبة مرشده واستسلامه له كاستسلام التلميذ لمعلمه فإذا ما أدخل الشيطان على قلب المريد داء الغرور والاكتفاء الذاتي فأعجب بنفسه واستغنى عن ملازمة شيخه باء بالفشل ووقف وهو يظن انه سائر وقطع وهو يظن أنه موصول[40].

وقد اشتهر النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدته لنفسه في عدة مواقف منها:

1 - عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض)[41].

2 - وعنها رضي الله عنها قالت : (كان فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أُدمٍ[42] وحشوه ليف)[43].

3 - وعن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة[44] وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف إليه فقال: (لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة)[45].

4 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما فيهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)[46].

([40]) حقائق عن التصوف ص (115- 119).
([41]) أخرجه البخاري (478/9) ومسلم (2970).
([42]) أي جلد.
([43]) أخرجه البخاري (5/11).
([44]) الخصاصة: الفاقة والجوع الشديد.
([45]) أخرجه الترمذي (2368) وقال حديث حسن صحيح وصححه ابن حبان (724) واحمد (18/6) والطبراني في الكبير (18 برقم 798) وأبو نعيم (17/2).
([46]) اخرجه البخاري (447/1).

وقد أدلى العارفون بدلائهم في مجال المجاهدة فقال الإمام البركوي[47] رحمه الله تعالى: المجاهدة: وهي فطم النفس وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات فهي بضاعة العباد ورأس مال الزهاد ومدار صلاح النفوس وتذليلها وملاك تقوية الأرواح وتصفيتها ووصلوها إلى حضرة ذي الجلال والإكرام

فعليك أيها السالك بالتشمير في منع النفس عن الهوى وحملها على المجاهدة إن شئت من الله الهدى قال الله تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[(48)] وقال أيضا ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾[(49)].

وقال أبو علي الدقاق[50] رحمه الله تعالى: من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة وقال الله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وعلم أنه من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة[(51)].

وقال أبو عثمان المغربي[52] رحمه الله تعالى: (من ظن أنه يفتح له بهذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها لا بلزوم المجاهدة فهو في غلط).

وقال الإمام الجنيد[53] رحمه الله تعالى: سمعت السري السقطي[54] يقول: يا معشر الشباب جدوا قبل أن تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصروا كما ضعفت وقصرت. وكان في ذلك الوقت لا يلحقه الشباب في العبادة[55].

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: لابد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق وهي مظهر ومجلاة للنهايات فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته فمن

27البركوي:
([48]) سورة العنكبوت الآية (69).
([49]) سورة العنكبوت الآية (6).
30الدقاق:
([51]) الرسالة القشيرية ص (48 - 50).
[52]: أبو عثمان المغربي:
[53] الجنيد:
[54]السري السقطي:
[55]

رأيناه جادا في طلب الحق باذلا نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه وإذا رأيناه مقصرا علمنا قصوره عما هنالك[56].

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[57] رحمه الله تعالى في تعليقاته على الرسالة القشيرية : إن نجاة النفس أن يخالف العبد هواها ويحملها على ما طلب منها ربها.

فان جئنا في رد الشبهات عن المجاهدة وقفنا على من قال: إن رجال التصوف يحرمون ما أحل الله من أنواع اللذائذ والمتع وقد قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾[58].

وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ فنقول: إن رجال التصوف لم يجعلوا الحلال حراما إذ أسمى مقاصدهم هو التقيد بشرع الله ولكنهم حين عرفوا أن تزكية النفس فرض عين وان للنفس أخلاقا سيئة وتعلقات شهوانية توصل صاحبها إلى الردى وتعيقه عن الترقي في مدارج الكمال وجدوا لزاما عليهم أن يهذبوا نفوسهم ويحرروها من سجن الهوى.

وبهذا المعنى يقول الصوفي الكبير الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى الله ردا على هذه الشبهة وجوابا لمن احتج بالآية الكريمة ﴿ قل من حرم زينة الله ..﴾ فهذا الاحتجاج تعنيف ومن القول تحريف لأنا لم نرد بهذا التحريم ولكنا أردنا تأديب النفس حتى تأخذ الأدب وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك ألا ترى إلى قوله جل وعلا ﴿ إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن

([56]) إيقاظ الهمم (370/2).
[57] زكريا الأنصاري:
([58]) سورة الأعراف الآية (32).

والإثم والبغي بغير الحق ﴾[59] فالبغي في الشيء الحلال حرام والفخر حرام والمباهاة حرام والرياء حرام والسرف حرام فإنما أوتيت النفس هذا المنع من

أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها حتى فسد القلب فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق تريد بذلك تغنيا أو مباهاة أو رياء علمت أنها خلطت حراما بحلال فضيعت الشكر وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر فلما رأيت سوء أدبها منعتها حتى إذا ذلت وانقمعت ورآني ربي مجاهدا في ذاته حق جهاده هداني سبيله كما وعد الله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[60] فصرت عنده بالمجاهدة محسنا فكان الله معي ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل وقذف في القلب نورا عاجلا في دار الدنيا حتى يوصله إلى ثواب الآجل وتجافى عن دار الغرور بما قذف في قلبه من النور فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخداعها وخرابها فغاب عن قلبه البغي والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء والحسد لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيم الدنيا وحلاوتها في قلبه وحبه لها وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس بمنع الشهوات منها[61]. وقد تسرع بعض الناس فزعموا جهلا أن التصوف في مجاهداته ينحدر من أصل بوذي أو براهيمي ويلتقي مع الانحرافات الدينية في النصرانية وغيرها التي تعتبر تعذيب

([59]) سورة الأعراف الآية (33).
([60]) سورة العنكبوت الآية (69).
([61]) كتاب الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي ص (124).

الجسد طريقا إلى إشراق الروح وانطلاقها ومنهم من جعل التصوف امتدادا لنزعة الرهبنة التي ظهرت في ثلاثة رهط سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما أخبروا عنها كأنهم تقالوها فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر وقال الثاني: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام وقال الثالث: أما أنا فاعتزل النساء ولا أتزوج ولما عرض أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صحح لهم أفكارهم وردهم إلى الصراط المستقيم والنهج القويم[62].

والجواب على ذلك أن التصوف لم يكن في يوم من الأيام شرعة مستقلة ولا دينا جديدا ولكنه تطبيق عملي لدين الله تعالى واقتداء كامل برسوله عليه الصلاة والسلام وإنما سرت الشبهة على هؤلاء المتسرعين لأنهم وجدوا في التصوف اهتماما بتزكية النفس وتربيتها وتصعيدها ومجاهدتها على أسس شرعية ضمن نطاق الدين الحنيف فقاسوا تلك الانحرافات الدينية على التصوف قياسا أعمى دون تمحيص أو تمييز غائبين عن مواقف المجاهدة العظيمة التي مر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام والمجاهدة المشروعة المقيدة بدين الله تعالى وبين المغالاة والانحراف وتحريم الحلال وتعذيب الجسد كما عليه البوذيون الكافرون.

وتلك مواقف ارتجالية عقيمة لا يمكن أن تثبت أمام النظر العلمي الحصيف.

فإذا وجد في تاريخ التصوف من حرم الحلال أو قام بتعذيب الجسد على غرار الانحرافات الدينية السابقة فهو مبتدع ومبتعد عن طريق التصوف لذا ينبغي التفريق بين التصوف والصوفي فليس بانحرافه ممثلا للتصوف كما أن المسلم بانحرافه لا يمثل الإسلام.

والمعترضون لم يفرقوا بين الصوفي والتصوف وبين المسلم والإسلام فجعلوا تلازما بينهما فوقعوا في الكاملين قياسا على المنحرفين.

([62]) أخرجه البخاري (4776) ومسلم (1401).

وإن منتهى آمال السالكين ترقية نفوسهم فإن ظفروا بها وصلوا إلى مطلوبهم والنفس تترقى بالمجاهدة والرياضة من كونها أمارة إلى كونها لوامة وملهمة وراضية ومرضية ومطمئنة ... الخ . فالمجاهدة ضرورية للسالك في جميع مراحل سيره إلى الله تعالى ولا تنتهي إلا بالوصول إلى درجة العصمة وهذه لا تكون إلا للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام[63] فالأولياء يصلون لدرجة الحفظ والأنبياء لدرجة العصمة.

إذا فالمجاهدة أصل من أصول طريق الصوفية وقد قالوا: (من حقق الأصول نال الوصول ومن ترك الأصول حرم الوصول).

الجهاد في سبيل الله قسمان، وعندما يصل المسلم بالمجاهدة يكون مستعدا للجهاد بنفس قوية جاهزة لمختلف أنواع الجهاد.

وينقسم الجهاد إلى جهاد الدفع وجهاد الطلب.

1 - ***جهاد الدفع:*** وهو جهاد الصائل والمعتدي وهذا ما قام به زعماؤنا مثل الأمير عبد القادر الجزائري، وبوعمامة وفاطمة نسومر، وغيرهم من الأبطال، ومنهم من جاهد بالنفس، ومنهم من جاهد بالعلم. حيث كان الشيخ الورثلاني يدعو في محاضراته الأحرار إلى مناصرة الجزائر، وهو في باريس سنة ألف وتسع مائة وسبع وثلاثون[64]. وبعد عودته إلى الجزائر ألقى عشرات الخطب والمحاضرات في مختلف جهات القطر وقد أثنى الشيخ العقبي وأشاد بالفضيل وجهوده المثمرة، قائلا له بعد أن انتهى من محاضرته: "أيها الابن البار، أيها الشاب العامل إنك قد أتيت من الأعمال على حداثة سنك، بما لم يأتي به كثير من الشيوخ وضحيت بما لم يضحي به أترابك من الشبان، وليس عندي من التياشين ما

(63) حقائق عن التصوف ص (124 - 127).
64 الشيخ الفضيل الورثلاني العلامة الثائر ص 47، دار الطباعة والنشر والتوزيع2010

أعلقه لك وأجازيك به وقد رأيتُ جزاءك عندي أن أقبل رأسك –وإن كنت أكره الرؤوس–. ولأول مرة في حياتي أقبل رأسا كهذا ثم تقدم وقبَّل رأسه"[65].

كما كان الصوفي أحمد ابن قدور العالم الفذ يبث في قومه روح النّضال ويزودهم بكل ما أوتي من علوم الروح وهاهو الكاتب والشاعر ياسين بن عبيد يؤبنه بقوله:

تَـرَاهُ في هيْبَةٍ كَاللَّيْثِ بَيْنَهُمُ وَالبَدرُ فِي كَشْفِهِ السُّبُلَ لِمَاشِيهَا

إذَا رَأَتْه جَماعَةً وَقَد سَعَرت نَار النضَال وَلاَ أَحَدَ يطفيهَا

نَطَقَ قَائلهم هَاهو جَاءَكم أَحْمَد بحكم بَيْنَكم ويفرجها[66]

فالتصوف قوة لأنه يهين النفوس في سبيل الله فالصوفية يبذلونها عن رضا لإعلاء كلمة الله فقد حملوا نفسهم المشاق لتثبيت الإسلام في الأمة الجزائرية رغم كيد الاستعمار كما نشروا الدين الحنيف في ربوع إفريقيا وأقطارها التي لم تفتحها الجيوش الإسلامية كما كان لهم الفضل في نشر الإسلام في اندونيسيا وغيرها من الأقطار النائية، كانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة، والخلق الكريم، أكثر مما ينشرونها بالدعاية التي لا تجدي[67].

يؤكد الصوفية على جهاد الدفع لأنه أصعب من جهاد الطلب، فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع على نفسه، كما قال تعالى: "**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**"[68]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من قُتِل دون ماله؛ فهو شهيد، ومن قُتِل دون دمه؛ فهو شهيد"

وكانت الصوفية تسهل دعوتها إلى الجهاد بذكر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يلهمون الناس الحماسة، يقول صالح بن عمر[69]:

وَرَمَى جَيْشًا بكَف من حَصَى عنْد القتَال

---

[65] البحائر العدد 82-1934/09/29 (م.ن.ص 49).

[66] الشعر الصوفي الجزائري المعاصر -المفاهيم والإنجازات- ص 271 ياسين بن عبيد، 2007.

[67] عبد الحليم محمود:"كتاب المنقذ من الضلال"، الطبع الأولى، دار الكتاب اللبنانية، ص348-349،

[68] الحج الآية 39.

[69] صالح بن عمر شاعر جزائري من بلاد الزاب بالجنوب الجزائري 1988-1928م

يَوْم بَدر وَ(حَنينَ) فَتولوا في انجفال
كَمْ جَرَتْ فِي مَحْفَلِ يمناه بالماء الزلزال[70]

يشير الشاعر هنا إلى أنه مهما كانت عدة العدو وعدده، فإن الإيمان والتقوى يجعلان المسلمين أقوى .

وقد جعل أهل العلم جهاد الدفع فرض عين على كل مسلم ذكر مكلف حتى يندفع العدو عن ديار المسلمين.

فالسلام فالسلام هو أصل العلاقة بين البشر كما يراه الصوفية وهذا ما عرف عن الأمير عبد القادر وغيره من الصوفي المجاهدين ، فلم يبادروا بالحرب على أي دولة. فالحرب مكروهة ويعملون على تفاديها بل يطمحون للسلام والمحبة والشفقة اقتداءا بالرسول صلى الله عليه وسلم يقول الأمير :

أبونا رسول الله خير الورى طرا فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرا[71]

ولانا[72] غدا دينا وفرضا محتما على كل لب منه يأمن الغتدرا

وحسبي بهذا الفخر من كل منصب ومن رتبة تسموا. وبيضاء[73] أو صفرا[74]

لكن أن أعتدي على أوطان أو المقدسات لهم الحق أن يدافعوا عنها فمفهوم السلام لا يلغي أمر الجهاد عندهم، لأنه ذروة سنام الإسلام. فإذا اضطر الأمر للجهاد فهم الأسود كما يقول الثائر الأول الأمير الشاعر عبد القادر:

سوانا ليس بالمقصود لما ينادي المستغيث ألا تعالوا

---

[70] الدكتور عبد الله الركيبي: "الشعر الديني الجزائري الحديث"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981، الطبعة الأولى، ص60.
[71] إشارة إلى نسبه للدوحة النبوية المطهرة. وهو من الفرع الحسني.
[72] ولاؤنا
[73] البيضاء والصفراء: المال بنوعيه الذهب والفضة.
[74] -ديوان الأمير عبد القادر الجزائري د/ ممدوح حقي ص 33 ط دار اليقظة بيروت. بيضاء وصفر المال بنوعيه الذهب والفضة.

ولفظ الناس ليس له مسمى سوانا والمنا منا ينال

رفعنا ثوبنا عن كل لؤم وأقوالي تصدقها الفعال

فلا جزع ، ولا هلع مشين ومنا الغدر أو كذب محال[75]

ولا نعدو الصواب إذا قلنا: إن هذا الجانب الهام غفل عن الخوض فيه جل الدارسين لهذا العلم ورجاله. بل حاولت فئة واسعة من المستشرقين، وبعض من حذا حذوهم من الباحثين المعاصرين، أن يصم التصوف بالخمول والكسل، والضعف والخنوع، والتهاون عن مقارعة الغزاة وصد المعتدين.

إن واقع الحال يخالف ذلك ، فالنصوص والأخبار والآثار التي في بطون أمهات الكتب تؤكد أن الجهاد بفرعيه: الأكبر والأصغر، أي جهاد النفس وجهاد الأعداء دارت عليه رحى التصوف. وأن هذين الجهادين ركنان أساسيان في الحياة الروحية الإسلامية، يشير الشيخ ابن عربي إلى ذلك في وصاياه قائلاً: "... وعليك بالجهاد الأكبر، وهو جهاد هواك، فإنك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد، خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء الذي أن قتلت فيه كنت من الشهداء الذين عند ربهم يرزقون..."(76).

وكيف يغيب عن بال الصوفية الآيات الكثيرة والأحاديث الشهيرة التي تبين فضل الرباط والجهاد، وهم خواص أهل السنة، كما يقرر الإمام القشيري في رسالته، وإن خلت مصنفاتهم من الإشارة إلى موضوع الجهاد الحربي إلا مانذر، كقول أبي طالب المكي (ت 386 هـ): ".... ولذلك صار الجهاد أفضل لأنه حقيقة الزهد في الدنيا"(77).

---

[75] ديوان الأمير عبد القادر، الطبعة الثالثة ص35.

[76]- **الوصايا: لابن عربي. (مؤسسة الأعلمي، بيروت د.ت) ص 37 ومابعدها**

[77]- **قوت القلوب: لأبي طالب المكي. (ط الميمنية، مصر 1310 هـ) ج1 ص**

وقريب من ذلك ماجاء في كتاب الإحياء للإمام الغزالي:
"... إن المنافقين كرهوا القتال، خوفاً من الموت، أما الزهاد المحبون لله تعالى، فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص"(78) وفي موطن آخر يقول حجة الإسلام : "ولقد عظم الخوف من أمر الخاتمة فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة" (79).

أما ابن عربي وهو شيخ الصوفية الأكبر فيقول في الفتوحات، متحدثاً عن أصناف الأولياء: "... ومنهم السائحون، وهم المجاهدون في سبيل الله، لأن المفاوز المهلكة البعيدة عن العمران، لا يكون فيها ذاكر الله من البشر، لزم بعض العارفين السياحة صدقةً منهم على البيداء التي لا يطرقها إلا أمثالهم، والجهاد في أرض الكفر التي لا يوحّد الله تعالى فيها، فكان السياحة بالجهاد، أفضل من السياحة بغير الجهاد..."(80).

والملاحظ أنه عندما ظهر التصوف رافقته مجموعة من الفضائل المستمدة من الفتوة، وفي مقدمتها: الشجاعة والتضحية. يقول العارف سهل التستري (ت 273هـ): "أصل هذا الأمر الصدق
والسخاء والشجاعة"(81). ويذكر غيره: "الأساس الأول للصوفي هو تقوية الصلة بالله، والشجاعة بالقتال للجهاد.(82).

78- احياء علوم الدين: للغزالي. (دار الفكر، دمشق 1994) ج4، ص 242
79- المصدر السابق ج1 ص 359.
80- الفتوحات المكية: لابن عربي. (دار صادر، بيروت د.ت) ج2 ص 33.
81- أحياء علوم الدين ج4 ص 409.
82- الفتوة في الإسلام وصلة الفتوة بالتصوف: لإبراهيم الجمل. (نهضة مصر 1992)، ص 26.

وقد جاء رجل إلى رويم البغدادي83 ، وقال له: "أوصني، فقال: أقل مافي هذا الأمر بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية. وعلق على ذلك الشيخ الهجويري84 في كشف المحجوب شارحاً: "أعني كل شيء غير هذا هو ترهات، وقد قال تعالى:" ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء...."(85).

إن العباد والزهاد ومن بعدهم الصوفية، استنوا لأنفسهم سنة "المرابطة"(86). فشدوا الرحال إلى ميادين القتال، لوعظ المجاهدين، وتقوية عزائمهم، والمجاهدة معهم. يقول يحي بن معاذ الرازي87 (ت 258هـ) مشيراً إلى أن من شروط الصوفية السياحة للجهاد:

ومن الدلائل أن تراه مسافراً *** نحو الجهاد وكل فعلٍ فاضل(88).

ومع الاعتراف بأن الذي ساعد على توافد الصوفية وسياحتهم في العواصم والثغور بهذه الأعداد الوفيرة، هو الفرار من مشاهد الفتن، وتطاحن الأحزاب التي برزت إبان العصرين الأموي والعباسي، وغرق كثير من الناس في ملذات الدنيا وشهواتها، فوجد هؤلاء في هجرتهم إلى تلك الأماكن آفاقاً رحبة لجهادهم، ورضى نفوسهم وراحتها.

83- رويم البغدادي أحد كبار العارفين (ت 303 هـ).

84 الهجويري: هو علي بن عثمان الجلابي الهجويري المولود في غزنة بأفغنستان والمتوفي في 465 هـ) والمدفون بالأهوار بالهند وقد مارس التصوف علما وعملا من مؤلفاته كتاب:" كشف المحجوب" وهو أول كتاب منظم شمل 25 قسم تكلم فيها عن الأصول النظرية والعملية للتصوف وعن تراجم الأئمة وأقوالهم .

85- كشف المحجوب : للهجويري. (القاهرة 1976) ص 232.

86- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: لعلي سامي النشار. (دار المعارف، مصر 1978)؛ ص 44، ص 322. والمرابطة كما ذكر المقريزي في خططه: "ملازمة ثغر العدو، وقيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن البلاد والعباد" 15-.

87- يحي بن معاذ الرازي هو أبو زكرياء يحي بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري وصفه الذهبي بأنه من أكبر المشايخ له كلام جيد ومواعظ مشهورة مات بنيسبور يوم 16 جمادى الأولى سنة 258هـ.

88- إحياء علوم الدين ج4- ص 265.

يقول أحمد بن أبي الحواري 89: "في الرباط والغزو نعم المستراح إذا مل العبد من العبادة، استراح إلى غير معصية"(90).

*أما غاية الجهاد في سبيل الله تعالى عبادة(عند الصوفية) من العبادات العظيمة التي يتعبد لله تعالى بها، وهو كما ذكرت سابقًا يعد من لوازم القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإبلاغ التوحيد للناس وإزالة ما يضاده من الشرك.

فما أعظمه وأشرفه من عبادة؛ حيث لا ينحصر نفعها على القائم بها ولكنها تتعداه إلى الناس بهدايتهم إلى الخير والسعادة في الدنيا والآخرة وإنقاذهم بإذنه تعالى من الشر والشقاء في الدنيا والآخرة.

ويمكننا حصر الغاية من الجهاد في الأهداف التالية:

1 – التعبُّد لله عز وجل بهذه الشعيرة العظيمة؛ شعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى؛ فشعور المجاهد أنه عبد لله عز وجل يحب ربه سبحانه، ويحب ما يحبه من الجهاد في سبيله، ويبغض ما يبغضه من الشرك والفساد، ويبغض من يبغضهم الله من أعدائه الكفرة، ويجاهدهم حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. إن هذا الشعور لمن أعظم الدوافع إلى بذل الجهد والجهاد في سبيل الله تعالى·ويقول الشاعر أبو اليقضان[91] مبرزا فضائل الجهاد

حتى يعتز شأن المسلمين ويعلو صيتهم في العالمينا ؟

---

[89]- هو أبو الحسن بن أبي الحواري أحد علماء أهل السنة والجماعة من أعلام التصوف السني في القرن الثالث هجري أصله من الكوفة سكن دمشق في سوريا وصفه ابن كثير بأنه أحد العلماء المشهورين و العباد المذكورين ...دو أحوال صالحة وكرامات واضحة ، ووصفه الجنيد بأنه ريحانة الشام. (ت 230 هـ)

90-- طبقات الصوفية: لأبي عبد الرحمن السلمي. (دار الكتاب النفيس، حلب 1986)، ص 101.

[91]- أبو اليقضان شاعر جزائري ولد بمدينة القرارة – ولاية غرداية (وادي ميزاب) بالجزائر يوم 29 صفر 1306هـ الموافق 5 نوفمبر 1888م

- دخل الكتاب القرآني و حفظ القرآن ثمّ أخذ في تعلم الفنون من عربية و شرعية على يد أستاذه الشيخ الحاج عمر بن يحيى ثم سافر إلى مدينة بني يسجن ليكمل دراسته على قطب الأئمة الشيخ طفيش الحاج محمد بن يوسف.

كما كانت بعهد الراشدينا وتقوى شوكة الإسلام حقا
ويعظم قدره في كل أرض فينجز فعلا و عهد الله فينا
وتنقذ أمة الإسلام جمعًا من العابثين والمستعبدينا ؟ [92]

ولو لم يحصل الداعية في دعوته وجهاده إلا على شعوره بالعبودية لله عز وجل والتلذذ بذلك لكفى بذلك دافعًا وغاية عظيمة(93).

كما أن في مصاحبة شعور العبادة لله تعالى في جميع تحركات المجاهد أكبر الأثر في التربية على الإخلاص وتحري الحق والصواب واللذان هما شرطا قبول العبادة، وعلى العكس من ذلك عندما ينسى أو يغفل المجاهد أنه متعبد لله تعالى بدعوته وجهاده، فإنه بذلك يضعف إخلاصه وتبدأ حظوظ النفس والهوى يسيطران على القلب، مما ينتج عنه في نهاية الأمر فتور المجاهد أو مزلة قدمه.

وإن بذل النفس والمال في سبيل الله عز وجل ليعد من أكبر العلامات على محبة الله تعالى ودينه، وعلى العكس من ذلك فيما لو تقاعس المسلم عن الجهاد في سبيل الله تعالى وبخل بماله أو نفسه عندما يوجد داعي الجهاد؛ فإن هذا دليل على ضعف المحبة لله تعالى .

---

92 – د عبد الله الركيبي : "الشعر الديني الجزائري الحديث" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط11981 ص99

93 – وعن شعور اللذة بالعبودية يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "... فقُرَّة عين المحب في الصلاة والحج وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذلك وفي الصيام والذكر والتلاوة وأما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والصبر على أعداء الله سبحانه فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه. وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم. ومن غلظ فهمه وكثف طبعه عن إدراك هذا فليتأمل إقدام القوم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم، ومفارقة أوطانهم، وبذل نحورهم لأعدائهم". "طريق الهجرتين": (56/1) ط. دار الحديث.

بمثل هذا الذوق وصل الصوفية إلى الاطمئنان والرضا في ظلال الحب الإلهي، ورأوا متعاً روحية دونها متع الحياة وشهواتها. وحسبهم أنهم يُسَرّون مع الله، وينعمون بقربه، ويشعرون بفضله وجوده {رَضِيَ اللهُ عنْهُم ورَضُوا عنْهُ} [البينة: 8] .[يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54]. فاختارهم بعد ما أحبّهم ورضي عنهم، أولئك خلاصة خلقه، وخواص أحبابه، فقيل فيهم:

قومٌ أَخلصوا في حُبِّه فاختار هم ورضي بهم خُدَّاما
قومٌ إِذا جَنَّ الظلامُ عليهمُ أبصرْتَ قوماً سجداً وقياما
يتلذذون بذكره في ليلهم ويكابدون به النهارَ صياما
فسيغنمون عرائساً بعرائسٍ ويُبَوَّؤن من الجِنان خياما
وتَقَرُّ أعينُهم بما أُخفِي له وسيسمعون من الجليل سلاما

والجهاد دليل المحبة الكاملة ·وفي هذا يقول· أبو مدين شعيب التلمساني: 94

أَهْلُ المَحَبَّةِ بِالْمَحْبُوبِ قَدْ شُغِلواُ وَفِي مَحَبَّتِهِ أَرْواحهُمْ بَذَلُوا
وَخَرّبُوا كُلَّ ماَ يَفْنىَ وَ قَدْ عَمَرُوا ما كاَنَ يَبْقىَ فياَ حُسْنَ الذِّي عَمِلُوا
لَمْ تُلْهِهِمْ زِينةُ الدُّنْياَ وَزُخْرُفهاَ وَلاَ جناَهاَ وَلاَ حِلْيٌ وَلاَ حُلَلُ
هاَمُوا علَى الْكَوْنِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ طرَبٍ وَماَ اسْتَقَلَّ بِهِمْ رَبْعٌ وَلاَ طَلَلُ

فإن المحبة مستلزمة للجهاد؛ لأن المحب يحب ما يحب محبوبة، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك، وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم

94 – ديوان أبي مدين: 68

ويغضب لغضبهم؛ إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له"(95)قال الشبلي[96]:

علم التصوف علم لا نفاد له علم سني سماوي ربوبي

فيه الفوائد للأرباب يعرفها أهل الجزالة والعلم الخصوصي

والفوز برضوان الله تعالى وجنته في الدار الآخرة؛ هو ثمرة التعبُّد لله عز وجل، وهي الغاية العظمى التي وعد الله عز وجل بها عباده الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والمجاهدين في سبيله على بصيرة· يقول: عبد المحمود نور الدايم

شاعر السودان[97] في قصيدة رائعة سماها شراب الكأس، يبرز فيها ثمرة التعبد.

واستغفر الله من أحوال نفسك مع دمع على الخد بالأحزان تجريه

---

95 -"مجموع الفتاوى": (10/57-58) باختصار.

96 – ذكر كثير من مؤرخي الصوفية ان اسمه دلف بن جحدر الشبلي بينما ذهب آخرون الى ان اسمه جعفر بن يونس ، وقد روى السلمي هذه التسمية الاخيرة في طبقاته عن احد معاصريه ، ورأى ذلك مكتوبا على قبر الامام الشبلي ببغداد.

وأيا كان فالكلا متفق على الكنية واللقب اللذين اشتهر بهما سيدي ابو بكر الشبلي . وقد ولد ببغداد سنة 247 ولحق بربه سنة 324 عن سبع وثمانين سنة ، وهو خراساني الاصل ,وقد نشأ في بغداد وكان والده حاجب الحجاب للخليفة الموفق ، فترى الشبلي في ظلال النعمة والمكرمة أخذا بنصيبه من الدين والدنيا ، حيث تفقه على مذهب الامام مالك واشتغل بعلم الحديث وروى منه الكثير ، ومن مروياته هذا الحديث الذي ذكره السلمي باسناده عن ابي سعيد قال : قال رسول الله لبلال : إلق الله فقيرا ولا تلقه غنيا.قال : يا رسول الله كيف لي بذلك ؟

قال ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ. قال : يا رسول الله كيف لي بذلك ؟ قال : هو ذاك والا فالنار. المصدر : من كتاب بحار الولاية المحمدية في مناقب اعلام الصوفية للاستاذ الدكتور جودة محمد ابو اليزيد المهدي ، ص 370-ص 378.

97 – عبدالقادر الجيلي بن عبدالمحمود نورالدائم.

ولد في طابت الشيخ عبدالمحمود، وفيها توفي.

عاش في السودان.

حفظ القرآن الكريم على يد عبدالماجد الطيب وهو ما يزال صغيرًا، وأخذ علوم الفقه والتفسير والحديث على والده، وتلقى الفقه المالكي والفقه المقارن، وغيرهما من العلوم على يد محمد البدوي شيخ علماء السودان في زمنه.

عمل مدرسًا في معهد طابت العلمي الذي أنشأه.

الإنتاج الشعري:

–له ديوان عنوانه نفحة الرياض البواسم – الدار السودانية – الخرطوم 1971، وأورد له كتاب: «الشيخ عبدالقادر الجيلي: حياته وآثاره» العديد من القصائد والمقطوعات الشعرية.

الأعمال الأخرى:

–له كتاب «مناقب الشيخ عبدالمحمود نورالدائم» – الدار السودانية – الخرطوم 1971.

شاعر صوفي يدور شعره حول الطريقة والإشادة بأشياخها مدحًا وتمنئة ورثاء حسب الأحوال، كتب التشطير الشعري. يميل إلى إسداء النصح، ويتجه إلى التوجيه والإرشاد، وشرح طريقة السالك إلى الله تعالى. بشعره نزعة عرفانية، ويبدأ قصائده – أحيانًا – بالدعاء بالسقيا على عادة أسلافه، ويصف الرحلة. لغته ثرية وخياله حيوي نشط، نفسه الشعري طويل، وتحتشد في قصائده مفردات ورؤى أقطاب التصوف.

مصادر الدراسة:

–عبدالمحمود الحفيان: الشيخ عبدالقادر الجيلي: حياته وآثاره – مشيخة الطريقة السمانية – طابت 1401هـ/1980م.

وناجه في ظلام الليل منكسراً ذليل نفس خشوعاً إذ تناجيه
والله حاكم والغفران شاهده ما يريده تعالى فيك يمضيه
والستر مكشوف والأهوال ظاهرة والذنب يغفره بالحب يبديه

وكثيرا هي الآيات في كتاب الله عز وجل التي تمدح المجاهدين في سبيله سبحانه والصابرين على ما أصابهم في سبيله وما أُعد لهم في الدار الآخرة من الرضوان والنعيم المقيم. وعندما يَنْشَدُّ الداعية إلى هذه الغاية وتنجذب نفسه إليها
فإنه يستسهل الصعاب ويمضي في طريقه بقوة وعزيمة وثبات، كما أنه عندما يتعلق بهذه الغاية العظيمة ولا ينساها، فإنه بذلك لا يلتفت إلى أعراض الدنيا الزائلة ولا ينتظر جزاء عمله ودعوته وجهاده في الدنيا، وإنما يروض نفسه ويربيها على أن تعطي من صبرها وجهدها وجهادها، ولا تأخذ منه شيئًا في الدنيا، وإنما تنتظر العطاء والثواب في الدار الآخرة من ربها الكريم في دار النعيم المقيم. ولذلك فإن أصحاب هذه النفوس المخلصة لا يتطرق إليهم الوهن ولا الفتور الذي يتعرض له أصحاب الأغراض الدنيوية القريبة، الذين إن حصلوا على أهدافهم في الدنيا رضوا وواصلوا العطاء، وإن تأخرت عليهم فتروا وكلوا وتوقفوا.
أما أصحاب الغاية العظيمة فهم لا يفترون ولا يتوقفون، لأن وقت ومكان توفية الأجر ليس مجاله الدنيا وإنما في الآخرة – دار الحساب والجزاء – ولذلك فهم يعملون ويجاهدون حتى يأتيهم اليقين. يقول الأمير عبد القادر :

وبالله أضحي عزنا وجمالنا بتقوى وعلم والتزوُّدِ للأُخرى
ومن رام إذلالا لنا قلت: حسبُنا اله الورى والجد[98] ...أنْعِم به دُخرا[99]

98 الجد يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم
99 –ديوان الأمير عبد القادر الجزائري

الجهاد في الإسلام إنما شرع رحمة بالناس، ولو كان فيه ما فيه من المشقة وبذل الأرواح والجراحات؛ فإن هذه المشقات والمكاره لا تساوي شيئًا في مقابلة ما يترتب على الجهاد من المصالح العظيمة وذلك من نشر الإسلام وتعبيد الناس لربهم سبحانه، وإزالة الفتنة والشرك والظلم عنهم[100].

نذروا النفوس لربهم ومضوا يسعون للإبرار بالنذر
خاضوا غمار الحرب لم يهنوا وعلى النحور دمائهم تجري
حملوا لواء الحق وانطلقوا والنور في قسماتهم يسري
إن أقبلوا فالحرب مقبلةٌ شعواء تقطع دابر الكفر
أو أدبروا فالعمر منقلب ما بين هذا الكرّ والفرّ
يحدوهم صوت النفير إلى ساح الوغى ومعامع[101] حمر
رفعوا الأكف تضرعاً ولهم نشجٌ من الإخبات والذكر[102]

وهذا الجهاد الذي دعا إليه الصوفية لأنهم يرو أنه يؤدي إلى غاية في الدنيا، وغاية في الآخرة.

أما غاية الجهاد في الدنيا:

فهي نشر التوحيد وتعبيد الناس لربهم سبحانه، ورفع الفتنة والشرك عنهم؛ وذلك لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وحده.

وأما الغاية من الجهاد في الآخرة:

فهي الفوز بمرضاة الله عز وجل وجنته، والنجاة من سخطه وعذابه.

والغاية من الجهاد في الدنيا إن هي في الحقيقة إلا وسيلة عظيمة لتحقيق الغاية العظمى في الآخرة؛ فعاد الأمر إلى غاية الغايات وهي رضوان الله وجنته.

---

100 التربية الجهادية مقال مطول الدكتور

101 –الفتن و الحروب

102– سرحان بن غزاي العتيبي في مدينة أم الساهك وصفوى بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية29 / 4 / 1425هـ قصيدة بعنوان فضل الجهاد

قال: عمير بن الحمام رضي الله عنه[103]

ركضاً إلى الله بغير زادِ غير التقى وعمل المعادِ

والصبر في الله على الجهادِ وكل زادٍ عرضةً للنفادِ

غير التقى والبر والرشاد

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية[104] رحمه الله تعالى مقصود الجهاد وغايته فيقول: "والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله؛ فمقصوده إقامة دين الله لا استيفاء الرجل حظَّه، ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله؛ فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"[105].

وسواء كان الجهاد جهاد دفع أو جهاد طلب فإن المقصود من الجهادين واحد؛ فهو في جهاد الدفع لرفع الفتنة عن المسلمين المعتدى عليهم في ديارهم؛ لأن في استيلاء الكفار على ديار المسلمين تعريضًا للمسلمين للفتنة في دينهم وأعراضهم وأموالهم، وفيه علو لكلمة الكفر على كلمة التوحيد· لعل أحسن وأدق عبارة تلخص لنا الجهاد المرير الذي كان دائرا بين الصوفية والمحتل الأجنبي بالجزائري،

---

103 – أول شهداء الأنصار

عمير بن الحمام

إنه الصحابي الكريم عمير بن الحمام الأنصاري –رضي الله عنه–، وقد شهد عمير غزوة بدر الكبرى مع الرسول (. وفي بداية المعركة وقف الرسول (خطيبًا في الناس يحثهم على الجهاد، ويحرضهم عليه وعلى بذل النفس في سبيل الله، فقال: (لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه). فلما اقترب المشركون، قال (: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.(فقال عمير –رضي الله عنه–: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟

فقال الرسول (: (نعم). فقال عمير: بخٍ بخ.

فقال الرسول (: (ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟) فقال عمير: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها.

فقال له الرسول (: (فإنك من أهلها.(

فأخرج عمير من جعبة سهامه بعض التمرات، وأخذ يأكل، ثم قال لنفسه: لئن أنا حييت)عشت) حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فقام ورمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل. [مسلم]. فكان عمير -رضي الله عنه- بذلك أول شهيد للأنصار قتل في سبيل الله.

104- تحدث الشيخ أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة في الجزء العاشر من مجموع فتاويه فقال: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت. وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم)

105 - مجموع الفتاوى": (170/15).

هي عبارة الأستاذة " ايفوان توران ":[106] " وحاولت فرنسا إنشاء مدارس عربية فرنسية ثم المكاتب الإسلامية ثم مدارس عربية بحتة، ولم يلتحق الجزائريون إطلاقا بأي من هذه المدارس، بل لقد هدمت في أوقات الانتفاضات ومنها انتفاضة 1871، في برج بوعريريج ومازونة وبجاية، لأنها (مدارس النصارى) وقامت حرب المدارس، وقد اشتكى ضابط الفرنسيون من مقاطعة المدارس بمستغانم وتأثير الزوايا في الشباب .اكتشف الفرنسيون إذن وجود الزاوية كمركز أساسي يأوي المقاومة ولاسيما المقاومة الثقافية، وكدلك المقاومة النفسية، بل هي حرب نفسية حقيقية، ابتكرتها الزوايا في القرن التاسع عشر.

وجملة القول: أنّ تأسيس الزوايا في الجزائر أدى إلى عدة نتائج:

. انتشر بواسطتها التصوف السني.

. وتعددت طرق وأساليب التربية الصوفية.

. وأصبحت مكانا لدفع الظلم والفتنة كما أنها مكانا فسيحا لتدريس العلوم النقلية والعقلية، فدعمت بذلك المسجد في بعض وظائفه ,ونشرت التعليم لدى الشرائح الدنيا من المجتمع، وفي نفس الوقت هي مراكز المجاهدين ضد المحتل الأجنبي، لجمع الرجال والمال والسلاح وشحذ الهمم، وقواعد خلفية للمقاومين. كما دعت الى جهاد الدفع الدي شرع حتى لا تكون فتنة على المسلمين فيكفروا بتسلط الكفار عليهم، وحتى لا تعلو شعائر الكفر في بلد كان يرفع فيه شعار التوحيد.

106من كتاب مواجهات ثقافية في الجزائر المستعمرة/ ايفوان توران. - ص209

فالمتصوفة الجزائريين كانت نظرتهم الى هذا الدين على أنه إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية الله وحده – سبحانه – وربوبيته للعالمين.

·· يقول محمد العيد أل خليفة في احدى قصائده بعنوان (هذيان آشيل)([107])، وأشيل أحد غلاة الاستعماريين في الجزائر، وقد كتب عدة مقالات في إحدى الجرائد المتعصبة تحامل فيها على الإسلام والمسلمين، فكان رد الشاعر قائلا في تلك القصيدة:

هيهات لا يعتري القرآن تبديل وإن تبدل توراة وإنجيل

للذين رموا هذا الكتاب بما لم يتفق معه شرح وتأويل

هل تشبهون ذوي الألباب في خلق إلا كما تشبه الناس التماثيل

فاعزوا الأباطيل لقرآن وابتدعوا في القول هيهات لا تجدي الأباطيل

وأزروا عليه كما شاءت حلمكم فإنه فوق هام الحق إكليل ماذا تقولون في آي مفصلة يزينها من فم الأيام ترتيل

ماذا تقولون في سفر صحائفه هدى من الله ممض فيه جبريل

آياته بهدى الإسلام ما برحت تهدي المماليك جيلا بعده جيل

فآية ملؤها ذكرى وتبصرة وآية ملؤها حكم وتفصيل

فليس فيه لا على الناس منزلة (عدن) وفيه لأدنى الناس سجل

ولا احتيال ولا غمص ولا مطل ولا اغتيال ولا نغص وتنكيل

إن هو إلا هدى للناس منبلج ضاحي المسمى أغر الاسم تنزيل

لئن مضت عنه أجيال وأزمنة تترى فهل سامه نقض وتحويل

107-ديوان محمد العيد أل خليفة ص 125

ما بال (آشيل (في (الدبيش) يسخر من آيات محكمة لا كان (آشيل)

إن شاعرنا يدعو إلى بذل الجهد في الدعوة والإعداد لتغيير النفوس وشحذ الهمم وتربيتها على التضحية والبذل في سبيل الله عز وجل.

حتى لا يستسلم الشعب للواقع وتُستمرأ الذلة، وتفتر الهمم ولا يحصل الإعداد للجهاد في سبيل الله عز وجل؛ فهذا مخالف لهديه صلى الله عليه وسلم؛ حيث كان يعد النفوس للتضحية بالمال والوطن والنفس في سبيل الله عز وجل؛ وهذا مطلوب لذاته كما أنه من أعظم العدة والزاد لما يُنتظر من الهجرة والجهاد في سبيل الله عز وجل. ويبعد النفوس عن الروح الانهزامية التي خنع لها بعض الشعراء كعمر بريهمات الذي ألقى قصيدة بعد أن حصل من وزير الفرنسي (كومبس) على وسام أكادمية التعليم . فقد رحب الشاعر بالوزير وشكر الحاكم العام ومدح فرنسا ' والغريب أنه سمى الاحتلال فتحا .وقال أن الجزائر كانت مضطهدة قبل الاستعمار ، وان الناس كانوا يغزون بعضهم بعض و يسفكون الدماء وطلب من المواطنين مصافحة هذا الوفد لأنه من جنس الفرنسيين وزاد في المبالغة فقال أنه يفدي الوفد بالروح:

قطر الجزائر قم صافح موافيك من أمة هي خير من يصافيك.

واصدع لهم ولها بالشكر إذ جلبت اليك كل نفيس لم يكن فيك.

وطالما كنت قبل الفتح مضطربا والسفك يسطو على أجيال ثاويك.

أعيان قوم هم الافرنج أصلا وان قلت الفرنسيس بالأرواح نفديك.[108]

108 -(ن م) تاريخ الجزائر الثقافي د/ لأبو القاسم سعد الله ص248 ج 8

هذا نموذج يبرز قمت الانهزامية التي غرستها فرنسا في بعض المثقفين . ولنفهم نفسية هؤلاء يحاول سيد قطب – رحمه الله تعالى – تفسير مواقف المهزومين، ولماذا يقفون هذا الموقف فيقول: "إننا نعرف لماذا يسهل عليهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو ·· إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في "سبيل الله" ·· جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله ·· جهاد لتحرير "الإنسان" من العبودية لغير الله، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد ·· "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" ·· وأنه ليس جهادًا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله؛ إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد! وليس جهاداً لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم؛ إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد! وليس جهادًا لإقامة مملكة العبد؛ إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله في الأرض ·· ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في "الأرض" كلها، لتحرير "الإنسان" كله؛ بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها ·· فكلها "أرض" يسكنها "الإنسان" وكلها فيها طواغيت تُعَبِّد العباد للعباد[109]!

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعًا أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم ·· إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلاً لا تستساغ! ·· لولا أن الأمر ليس كذلك، وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية؛ فليس لواحد منها أن

---

[109]- يقول: سيد قطب.
إن إنسانية الإنسان وكرامته وحريته الحقيقية الكاملة لا يمكن أن تتحقق في ظل اعتقاد أو نظام لا يفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والحاكمية ولا يجعل له وحده حق الهيمنة على حياة الناس في الدنيا والآخرة، في السر والعلانية ولا يعترف له وحده بحق التشريع والأمر والحاكمية في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية..

والواقع البشري على مدار التاريخ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها. فما من مرة انحرف الناس عن الدينونة لله وحده- اعتقادا ونظاما- ودانوا لغير الله من العباد- سواء كانت هذه الدينونة، بالاعتقاد والشعائر أم كانت باتباع الأحكام والشرائع- إلا كانت العاقبة هي فقدانهم لإنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم!

يقول: إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعًا من ذلة العبودية للعباد، ويرفع البشر جميعًا إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك!

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوماً صليبيًا منظمًا لئيمًا ماكرًا خبيثًا يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وإن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد!

وأخيرًا فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيًا في هذا الزمان وتتعاظمهم؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر .. وهو يهول فعلاً! .. فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين، وهم شعوب مغلوبة على أمرها؛ أو قليلة الحيلة عمومًا! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعًا بالقتال، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؟! إنه لأمر لا يتصور عقلاً .. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلاً!"[110].

وكثيرا ما يحدر الصوفية ممن يرون أن آية السيف التي نزلت في سورة براءة قد نسخت كل مراحل الجهاد السابقة؛ سواء من كف اليد أو المسالمة مع الكفار، أو عقد صلح أو هدنة معهم .. إلخ، ونظروا إلى أن قتال الكفار والمرتدين اليوم فرض دون أن ينظروا إلى أحوال المسلمين وضعفهم، ودون أن ينظروا إلى تحقيق شرائط الجهاد من: القدرة، وإقامة الحجة

110 - "في ظلال القرآن": (3/1737-1739) باختصار.

على الناس بالبيان الكافي لسبيل المؤمنين، والتعرية التامة لسبيل المجرمين؛ حتى يكفر من كفر ويهلك من هلك عن

بينة، ويؤمن من آمن ويحيى من حيي عن بينة، ودون أن يكون هناك الإعداد المعنوي الروحي للمجاهدين علمًا وعملاً وعبادة وأخلاقًا.

واني أرى أن واقع المسلمين اليوم وما يعيشونه من ذلة ومهانة وتسلط أعدائهم عليهم وذهاب دولتهم هو أشبه ما يكون بحال الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة؛ حيث الاستضعاف وتسلط الكفار. ولكن أصحاب هذا الموقف فارقوا الموقف الأول الذي رضخ للواقع في أنهم لم يرضوا بالاستسلام للواقع، ولم يرضوا بالذل والمهانة؛ بل قاموا بإتباع أثر النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الظروف حيث جاهد وصبر وبلَّغ التوحيد الخالص للناس، وربى أصحابه رضي الله عنهم على التوحيد ومقتضياته، وأعدهم علمًا وعملاً للجهاد والتضحية في سبيل الله تعالى؛ فصبروا وصابروا، وهجروا الخلان والأوطان، واستعذبوا ذلك في سبيل الله عز وجل؛ حتى إذا علم الله عز وجل صدق ذلك منهم هيأ لهم المراحل التالية من مراحل الجهاد في سبيله سبحانه، وهيأ لهم الأنصار والدولة التي ينطلقون منها للجهاد في سبيل الله عز وجل، ففتحوا الدنيا ونشروا أنوار التوحيد ورسالة الإسلام في كل مكان قدروا عليه حتى أصبح الدين كله لله، وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الكافرين هي السفلى.

كما فارقوا الموقف الثاني بالصبر وعدم العجلة في جهاد الطلب للكفار والمرتدين قبل الإعداد الشامل لذلك.

يقول الإمام الشافعي:[111]

ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء

[111] - لامام الشافعي احد الائمة الاربعة عند اهل السنة واليه نسبة الشافعية كافة . وهو ابوعبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي. وكان ابوه قد هاجر من مكة الى غزة بفلسطين بحثا عن الرزق لكنه مات بعد ولادة محمد بمدة قصيرة فنشأ محمد يتيما فقيرا . وشافع بن السائب هو الذي ينتسب اليه الشافعي لقي النبي صلى الله عليه وسلم ، واسر ابوه السائب يوم بدر في جملة من أسر وفدى نفسه ثم اسلم . ويلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف.

وكن رجلا" على الأهوال جلدا وشيمتك السماحة والوفاء
وإن كثرت عيوبك في البرايا وسرّك أن يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب يغطيه كما قيل السخاء
ولا تر للأعادي قط ذل فإن شماتة الأعداء بلاء

أما جهاد الطلب فإنه لا يكون إلا بعد قيام دولة وكيان قوي للمسلمين ينطلقون منه ويفيئون إليه، ويهاجر إليه وتصب طاقات المسلمين فيه· وقبل قيام هذا الكيان القوي الآمن فإنه ليس أمام المسلمين إلا إعداد العدة لإقامة هذا الكيان، والقيام بجهاد الدفع فيما لو تعرض المسلمون إلى عدو كافر يريد صرفهم عن دينهم أو استباحة دمائهم وأموالهم وأعراضهم وديارهم.

فضائل الجهاد في سبيل الله تعالى وثماره في نظر الصوفية:

تقدم الحديث عن غاية الجهاد في سبيل الله عز وجل وثمرته الكبرى في الدنيا والآخرة، وأنه شرع لتعبيد الناس لرب العالمين، وحتى لا تكون فتنة ولا شرك ويكون الدين كله لله. هذا في الدنيا أما في الآخرة فرضوان الله وجنته والنجاة من سخطه والنار.

وقد نبه الله سبحانه إلى خيرية الجهاد في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: **(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)**[112].

(أ) الثمار التي تظهر في الدنيا :

1- بالجهاد تظهر حقيقة المحبة لله عز وجل وصدق العبودية له، ويظهر الصادق فيها من الكاذب؛ فالجهاد في سبيل الله تعالى وتقديم الروح رخيصة لله تعالى من أقوى البيان على صحة دعوى المحبة لله تعالى ولدينه، وبالجهاد يمحص ما في القلوب ويبتلى به ما في الصدور ويتخذ الله عز وجل من شاء من عباده شهداء.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى؛ فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلئُ حُرقَة الشَّجيِّ. فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا تُقبل هذه الدعوى إلا ببينة **(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)**[113].

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية (يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[114].

---

[112]-(البقرة:216)

[113]-(آل عمران: من الآية31)

[114]-(المائدة: من الآية54)

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ[115].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا· فرأوا من أعظم الغَبْن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس· فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار· وقالوا: "

هل المحبة بالمحبوب قد شغلوا وفي محبته أرواحهم بذلوا
هاموا على الكون من وجد ومن طرب وما استقل بهم ربع ولا طلل
داعي التشوف ناداهم وأقلقهم فكيف يهنو ونار الشوق تشتعل
من أول الليل قد سارت عزائمهم وفي خيام حمى المحبوب قد نزلوا
وافت لهم خُلع التشريف يحملها عرف النسيم الذي من نشره ثملوا
هم الأحبة ناداهم لانهموا عن خدمة الصمد المحبوب ما فلوا
سبحان من خصهم بالقرب حين قضوا في حبه وعلى مقصودهم حصلوا

وهنا يحسن الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بعقيدة الولاء والبراء[116] والحب في الله والبغض في الله؛ ألا وهي: أن هذه الشعيرة العظيمة التي هي صلب التوحيد وأسه المتين إنما تقوى وتصقل بالجهاد في سبيل الله تعالى، والدعوة إلى الله تعالى، والأمر

[115]-(التوبة: من الآية111)
116-لولاء والبراء معناه الحب والبغض، الواجب منه الذي من فقده فقد الإسلام؛ أن يبرأ من الشرك بمعنى أن يبغض الشرك، وأن يوالي التوحيد بمعنى أن يحب التوحيد، أن يبرأ مما يعبده المشركون بمعنى يبغض المعبودات

بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنها تضعف ويصيبها الوهن بترك ذلك أو ضعفه· وإن المتأمل في كتاب الله عز وجل وفي واقع الدعوة إلى الله عز وجل يرى أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله، وبين عقيدة الولاء والبراء في نفس المؤمن

نشر التوحيد وشريعة الإسلام التي يهنأ الناس في ظلالها، وتسعد البشرية بها، ويرتفع عنها الظلم والشقاء بارتفاع الشرك الذي فيه استعباد الناس وظلمهم وقهرهم· والتاريخ يشهد بذلك؛ فما من أمة فشى فيها الشرك والكفر إلا وعانت من الظلم والشقاء وتسلط الطواغيت الشيء العظيم، وما من أمة دخلها الإسلام وحكمها بحكمه العادل القائم على توحيد الله عز وجل إلا صلح أمرها وعاشت هنيئة سعيدة تحت ظلاله الوارفه، فالجهاد إذن شرع رحمة بالعباد·

إن العباد والزهاد ومن بعدهم الصوفية، استنوا لأنفسهم سنة "المرابطة"([117]). فشدوا الرحال إلى ميادين القتال، لوعظ المجاهدين، وتقوية عزائمهم، والمجاهدة معهم. يقول يحيى بن معاذ الرازي (ت 258هـ) مشيراً إلى أن من شروط الصوفية السياحة للجهاد:

ومن الدلائل أن تراه مسافراً *** نحو الجهاد وكل فعلٍ فاضل ([118]).

ففي الجهاد عاقبة محمودة للناس في الدنيا يحبونها: وهي النصر والفتح، وفي الآخرة الجنة، وفيه النجاة من النار؛ وقد قال تعالى في أول السورة (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ

117- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: لعلي سامي النشار. (دار المعارف، مصر 1978)؛ ص 44، ص 322. والمرابطة كما ذكر المقريزي في خططه
118- احياء علوم الدين: للغزالي. (دار الفكر، دمشق 1994) ج4، ص 242

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) [119]فهو يحب ذلك؛ ففيه حكمة عائدة إلى الله تعالى وفيه رحمة للعباد؛ وهي ما يصل إليهم من النعمة في الدنيا والآخرة"[120].

ويذكر أحمد أمين أن الشيخ محي الدين بن عربي الصوفي المشهور (ت 638هـ) أُثر عنه أنه كان خلال الحروب الصليبية يحرض المسلمين على الجهاد ومقاومة الغزاة الصليبيين(121) ومن وصاياه قوله: "وعليك بالجهاد الأكبر وهو جهاد هواك فإنك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء الذي إن قتلت فيه كنت من الشهداء الأحياء الذين عند ربهم يرزقون... واجهد أن ترمي بسهم في سبيل الله واحذر إن لم تغز أن لا تحدِّث نفسك بالغزو..."(122

بالجهاد يُدفع عذاب الله عز وجل ونقمته في الدنيا والآخرة ويعيش المسلمون حياة طيبة عزيزة خالية من التذلل للكفار والبقاء تحت سيطرتهم وقهرهم. والعكس من ذلك يحصل حين يُترك الجهاد ويركن الناس إلى الدنيا؛ حيث يحل محل العزة ذل المسلمين واستكانتهم لأعدائهم يسومونهم سوء العذاب في أديانهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا ظن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم)[123].

119-(الصف:4)
120-"مجموع الفتاوى": (36/8).
121--ظهر الإسلام، أحمد أمين. النهضة المصرية 1966 ط(3) ج(4) ص222
122- الوصايا، ابن عربي دمشق 1958 مطبعة كرم ص49
123- أبو داود (3462)، وأحمد: (28/2) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: (2956).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [124]،

فتضمنت هذه الآية أمورًا أحدها أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله؛ فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل البهائم· فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا؛ فهؤلاء الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان· ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول؛ فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة؛ فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول·

قال قتادة: هو هذا القرآن؛ فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة·

وقال السدي: هو الإسلام؛ أحياهم به بعد موتهم بالكفر·

قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد؛ فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم· قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة"[125].

المجاهدون في سبيل الله تعالى من أهدى الناس إلى الحق، وأسعدهم بسبيل الله عز وجل عند اختلاف السبل؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[126].

124-(الأنفال:24)
125-"الفوائد": (ص88).
126-(العنكبوت:69)

وقد كان في عهد الاحتلال في الجزائر زعماء حركة الجهاد التي تؤلف محاربتهم انطلقت من الطرق الصوفية وخاصة المرتكزة منها حول الزوايا التي كانت منذ قرون تعتني بالجهاد عند الخطر وتعتني بالعلم والتصوف عند السلم، ومن أبرز تلك الطرق في القرن الماضي القادرية والرحمانية([127]) وقد أنجبت الأولى الأمير: عبد القادر الجزائري الذي يعتبر بلا منازع شيخ المجاهدين في العصر الحديث.

كما أن الجهاد في سبيل الله تعالى من أعظم وسائل التربية للنفس وتزكيتها باطنًا وظاهرًا: فكم من الأخلاق الفاضلة وأعمال القلوب الزكية لا يمكن إصلاحها والوصول بها إلى كمالها أو قرب كمالها إلا بالجهاد في سبيل الله تعالى· وبدون الجهاد ستبقى هذه الأعمال ضعيفة أو يصعب على العبد تكميلها وهو قاعد·

وهذا ما أشار إليه الشاعر

ذو الجهادين من عدو ونفس فهو طول الحياة في هيجاء
أنت حيناً تقاس بأسد الورى وحيناً تعدّ في الأولياء128

وفيه سنام التوكل وسنام الصبر؛ فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل؛ ولهذا قال تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [129].

وقال تعالى: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[130] .

··· وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا، وفي الدار الدنيا، وفيه أيضًا: حقيقة الإخلاص؛ فإن الكلام فيمن يجاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا

127- الأمير عبد عبد القادر بطل الشمال الأفريقي، محمد عبد المنعم المحامي ومحمد عبد الوارث الصوفي. القاهرة 1958 المكتبة العلمية ط1، ص88
128- الروضتين، ج(1) ص18
129-(النحل:41-42)
130-(لأعراف:128).

في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا· وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[131].

إن استقراء التاريخ يدل على أن الجهاد في سبيل الله عز وجل يوحد صفوف المسلمين ويضيق أبواب الخلاف، وما من وقت كان المسلمون يقارعون فيه أعداءهم الكفار إلا وكانوا فيه في غاية الإخاء والاتحاد، وما كانوا ينتهون من غزوة أو معركة إلا ويدخلون في أخرى، ولم يجد الخلاف إليهم سبيلا، والعكس من ذلك يحدث عندما يعطل الجهاد وينشغل المسلمون بعضهم ببعض·

وفي الآخرة تتحقق الثمرة العظمى للجهاد في سبيل الله تعالى، والتي تنافس فيها المتنافسون، وضحى في سبيلها المجاهدون بأرواحهم رخيصة راضية بها نفوسهم، وكيف لا وهم يرجون رحمة الله تعالى ورضوانه وجناته؟! هذه الغاية الشريفة والثمرة العظيمة التي يرخص في سبيلها كل شيء·

وإن المتأمل في كتاب الله عز وجل والمتدبر لجميع الآيات التي ورد فيها ذكر الجنة وما أعد الله عز وجل فيها لأهلها من الرضوان والنعيم ليلفت نظره أمرٌ مهم وشيئ عجيب؛ ألا وهو أن جل ما ورد من الآيات التي يذكر فيها سبحانه ما أعد لأوليائه من الجنة والرضوان يسبقها في العادة صفات الموعودين بذلك، وبالتأمل في أوصافهم تلك نجد أنها تكاد تنحصر في: المجاهدين، والصابرين،

131-(التوبة: من الآية111)

والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. وفيما يلي ذكر بعض الآيات التي يذكر الله عز وجل فيها ما أعد لعباده المجاهدين من الرحمة والنعيم والرضوان.

– *الآية الأولى:* قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[132].

– الآية الثانية: قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)[133].

وأما الأحاديث في فضائل الجهاد وما أعد الله للمجاهدين والشهداء في الآخرة فهي كثيرة جدًا والمتأمل في أحاديث الفضائل يجد أنه ما من عمل صالح جاء في فضيلته والترغيب فيه والثناء على أهله أحاديث كثيرة لم تأت لغيره من الصالحات كما جاء في شعيرة الجهاد؛ ومن هذه الأحاديث:

– *قوله صلى الله عليه وسلم:* (انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمانٌ بي، وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سَرية، ولوددت أني أقتلُ في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا، ثم أُقتل)[134].

132(البقرة:218)
133-(البقرة:214)
134-- البخاري في الإيمان باب الجهاد من الإيمان، ابن ماجة (2753).

و لابد من الإلماح إلى شواهد حية من جهاد الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وقد اخترنا هذه الحقبة لصفائها من الشوائب، ولأنه تم فيها وضع أسس ومرتكزات علم التصوف وقواعده. قال الإمام الجنيد[135] (ت 297 هـ): "طوي بساط هذا العلم منذ خمسة عشر عاماً، وإنما نتكلم في حواشيه".

فمع بواكير القرن الثاني يطالعنا الحسن البصري[136]- رحمه الله- (ت 110 هـ) الذي يعده الصوفية في هرم سلسلة شيوخهم وناشر علومهم. قال أبو طالب المكي: "كان الحسن رضي الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم، وفتق الألسنة به، نطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف قناعه."([137]). وذكر الحفاظ: "لازم الحسن العلم والعمل، وكان أحد الشجعان الموصوفين في الحرب"([138]).

وعن ابن سعد أن رجلاً سأل الحسن: يا أبا سعيد هل غزوت؟! قال: نعم([139])، وقال أيضاً: "غزونا إلى خراسان ومعنا ثلاثمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ([140]). واشتهر عن الحسن قوله: أدركت سبعين بدرياً ماكان لباسهم إلا الصوف.

135الإمام الجنيد **أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري**، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، أصله نهاوند في همدان (مدينة اذرية)، ومولده ومنشؤه ببغداد. قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي: «هو من أئمة القوم وسادتهم؛ مقبول على جميع الألسنة»

صحب جماعة من المشايخ، وأشتهر بصحبة خاله سري السقطي، والحارث المحاسبي. ودرس الفقه على أبي ثور، وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة. توفي يوم السبت سنة 297 هـ

136الحسن البصري **الحسن بن الحسن البصري** (21هـ/642م - 110هـ/728م) إمام وعالم من علماء أهل السنة والجماعة يكنى بـ**أبى سعيد** ولد قبل سنتين من نهاية خلافة عمر بن الخطاب في المدينة عام واحد وعشرين من الهجرة، كانت أم **الحسن** تابعة لخدمة أم سلمة، فترسلها في حاجاتها فيبكي **الحسن** وهو طفل فترضعه أم سلمة لتسكته وبذلك رضع من أم سلمة، وتربى في بيت النبوة. كانت أم سلمة تخرجه إلى الصحابة فيدعون له، ودعا له عمر بن الخطاب، فقال **"اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس"**. حفظ **الحسن** القرآن في العاشرة من عمره.

137- قوت القلوب ج**1**، ص **150**.

138- تذكرة الحفاظ : للذهبي ج**1** ص **71**. تهذيب التهذيب: للعسقلاني ج**1**، ص **483**.

139- الطبقات الكبرى: لابن سعد. (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت) ج**3** ص **175**.

140- الزهد : للإمام أحمد بن حنبل. (دار الدعوة ، الإسكندرية **1987**)، ص **348**.

من مأثوراته: "ماعمل عملٌ بعد الجهاد في سبيل الله، أفضل من ناشئة الليل"([141]).

ومن أعظم من لحق بالحسن بالبصري، واختلف إلى حلقته وتأثر بمواعظه: محمد بن واسع[142]– رحمه الله– (ت 123هـ)، ومالك بن دينار (ت 131 هـ). وقد رافق الأول والي خراسان قتيبة بن مسلم في فتح ماوراء النهر، وكانت عليه مدرعة صوف خشنة. وقد جعل قتيبة مرة يكثر السؤال عنه فأخبر أنه في ناحية من الجيش متكئاً على قوسه، رافعاً أصبعه إلى السماء، فقال قتيبة: لأصبعه تلك أحب إليَّ من مئة ألف سيف شهير ([143]) كان ابن واسع كثير الصمت، ومن كلامه: مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه([144]).

وأما مالك بن دينار– رحمه الله– فهو يعد من كبار رجال الطريقه، وقد هجر الدنيا وانزوى عن أهلها. يروي صاحب كنوز الأولياء عنه: أنه كان في طلب الغزو سنين، فركب بعسكر الإسلام للغزو، فلما شرعوا، أخذته الحمى، حتى

141 - العقد الفريد: لابن عبد ربه ج6 ص 225. الإحياء: ج4، ص 249. مشاهير علماء الأمصار: لابن حبان. (القاهرة 1959)، ص 151.

142- محمد بن واسع ابن جابر بن الاخنس الإمام الرباني القدوة أبو بكر قال ابن حبان هوه سيد قومة بارق الازد في البصرة ومن رهطة علي بن عبد الله البارقي التابعي. أحد الاعلام حدث عن أنس بن مالك وعبيد بن عمير الليثي ومطرف بن الشخير وعبد الله ابن الصامت وأبي صالح السمان ومحمد بن سيرين وغيرهم توفي محمد بن واسع سنة ثلاث وعشرين ومئة .

143- البيان والتبيين : للجاحظ : (القاهرة 1948) ج1، ص 273.

144- التعرف لمذهب أهل التصوف : للكلاباذي. (بيروت 1993). ص 115.

ويعلق الهجويري على هذه العبارة: إن المرء عندما تغلبه المحبة للذات الإلهية، يصل إلى مرحلة لا يرى فيها الصنع وإنما يرى الصانع. وقال الشيخ ابن عربي في الفتوحات (ج4 ص 379): وماقال بالاتحاد- إلا أهل الإلحاد، ومن قال بالحلول فهو معلول بلا دواء له.

غدا لا يقدر القعود على الفرس، فضلاً عن أن يقاتل، فحملوه إلى الخيمة، وجعل يبكي ويقول: لو أن في بدني خيراً لمايبتلى اليوم بالحمى([145]).

وفي الطبقة نفسها يلقانا طائفة من العارفين المجاهدين، منهم: أبو الصهباء صلة بن الأشيم[146] –رحمه الله– من كبار التابعين العباد، وقد تزوج من العابدة معاذة، التي روت أن زوجها كان يصلي حتى يأتي فراشه زحفاً. وقال ابن حبّان في سياق كلامه عن صلة: كان يرجع إليه الجهد الجهيد، والورع الشديد، مع المواظبة على الجهاد براً وبحراً، دخل سجستان غازياً، وقتل بكابل في ولاية الحجاج بن يوسف.([147]).
ومنهم عتبة الغلام–رحمه الله– (ت 160هـ) أحد الزهاد المشهورين البكائين. جاء في الحلية عن عتبة أنه قال: "اشتروا لي فرساً يغيظ المشركين إذا رأوه.([148]) ونقل عن ابن مخلد الصوفي قال: جاءنا عتبة الغلام، فقلنا له: ماجاء بك؟، قال: جئتُ أغزو، فقلتُ: مثلك يغزو! فقال: إني رأيتُ في المنامُ أني آتي (المصيصة)([149])، فأغزو فأستشهد، قال: فمضى مع الناس فلقوا الروم، فكان أول رجل استشهد. من مأثوراته، لا عقل كمخالفة الهوى، ولا فقر كفقر القلب، ولا فضيلة كالجهاد.

---

[145]- كنوز الأولياء: للزيلي الحنفي. (مخطوط بمكتبة الأسد، رقم 2927)، الورقة 60 أ. وانظر أيضاً عن جهاد عبد الواحد: حلية الأولياء ج6 ص 162. وجهاد مع أعداء الإسلام في غزو الإسلام).

146- بن الأشيم هو صلة بن أشيم العدوي من عدي الرباب وهو عدي بن عبد مناة بن طابخة أورده سعيد القرشي. ويكنى أبا الصهباء

147-- مشاهير علماء الأمصار ص 185.

148- حلية الأولياء: لأبي نعيم. (بيروت 1985) ج6 ص 227-228

149- المصيصة، قال ياقوت في معجم البلدان: مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام، رابط بها الصالحون قديماً.

ومنهم عبد الواحد بن زيد[150] –رحمه الله– (ت 177هـ) يقول: قرأ أحد أصحابنا الآية الكريمة: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" فتهيأنا إلى الغزو...."([151])، ويعد عبد الواحد من الشيوخ الكبار الذين تكلموا في مواجيد الصوفية وأذواقهم، وهو من طليعة من استفاضوا في الحديث عن مقام الرضا، والحب المتبادل بين الله عز وجل وأوليائه. وقد أسند عن الحسن البصري قوله: "لكل طريقٍ مختصر، ومختصر طريق الجنة الجهاد"([152]).

ومنهم رباح القيسي –رحمه الله– (ت 177هـ) الولي الشهير وقد ارتبطت حياته بتلامذة الحسن البصري، ونال شرف الشهادة وهو يخوض بفرسه غمار إحدى المعارك ضد أعداء الدولة الإسلامية.([153]).

من كلامه: من المستحيل أن تنظر قلوب محبي الدنيا إلى نور الحكمة.

ومنهم إبراهيم بن أدهم –رحمه الله– (ت 161هـ) الذي يعد إمام المتصوفين الروحانيين، كان أبوه ملكاً، لكن الابن تزهد اختياراً، وساح في البلاد، وجعل الثغور الإسلامية له مقاماً، يذكره ابن عساكر أنه كان فارساً شجاعاً، ومقاتلاً باسلاً، رابط في الثغور، وخاض المعارك على البيزنطيين([154])، وقال ابن حبان:

150- عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري توفي سنة 177 هـ خطيب البصرة وأحد تلامذة الحسن البصري وهو راوية حديث لكن لا يحتج بروايته كما أنه شيخ الصوفية في عصره وأزهدهم وأتباعه هم أول من بنوا أديرة الصوفية وأحد أتباعه رياح بن عمرو القيسي هو أول من خرج بالزندقة من الصوفية.

151- روض الرياحين في حكايات الصالحين: لليافعين: (مط الإبراهيمية، مصر د.ت)، ص 36.

152- حلية الأولياء ج6 ص 157

153- المصدر السابق ج6 ص 194.

154- انظر: تهذيب تاريخ دمشق: لبدران. (بيروت 1979) ج2، ص 179. وانظر

إبراهيم بن أدهم مولده ببلخ، ثم خرج إلى الشام طلباً للحلال المحض، فأقام بها غازياً ومرابطاً إلى أن مات، واختلف في وفاته، والأصح ماذكره ابن كثير وياقوت أنه مات وهو قابض على قوسه يريد الرمي به إلى العدو"([155]).

ومنهم شقيق البلخي[156] –رحمه الله– (ت 194هـ) صحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطريق. قال حاتم الأصم: كنا مع شقيق نحارب التُرك، في يوم لا تُرى إلا رؤوس تطير، ورماح تُقصف، وسيوف تُقطع فقال لي: كيف ترى نفسك ياحاتم في هذا اليوم؟! تراه مثل ماكنت في الليلة التي زُفّت إليك امرأتك؟؟ قال: لا والله. قال: لكني والله، أرى نفسي في هذا اليوم مثل ماكنتُ تلك الليلة. واستشهد شقيق في غزاة كوملان([157]) فيما وراء النهر.

وحكاية أخرى عن شقيق البلخي نرويها هنا للفائدة، قال: خرجنا في غزاة لنا في ليلة مخوفة، فإذا رجل نائم، فأيقظناه، فقلنا: تنام في مثل هذا المكان؟! فرفع رأسه وقال: إني لأستحي من ذي العرش أن يعلم أني أخاف شيئاً دونه.

---

[155]- البداية والنهاية: لابن كثير (بيروت 1966) ج10 ص 145. معجم البلدان مادة "سوقين".

[156]- شقيق البلخي أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثاني الهجري من أهل بلخ في خراسان، كان أستاذ حاتم الأصم[1]، صحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه التصوف[1]. وروى عن كثير بن عبد الله الأبلي وإسرائيل بن يونس وعباد ابن كثير. حدث عنه عبد الصمد بن يزيد مردويه ومحمد بن أبان المستملي وحاتم الأصم والحسين بن داود البلخي[2]. استشهد في غزوة كولان عام 194 هـ

[157]- سير أعلام النبلاء ج6 ص 313. تهذيب ابن عساكر ج6 ص 335

ومنهم علي بن بكّار –رحمه الله– (ت199هـ)، سكن ثغر المصيصة مرابطاً إلى أن مات بها. وصفه صاحب الحلية بـ "المرابط الصبّار، والمجاهد الكرّار، كان يصلي الغداة بوضوء العتمة".

قال ابن الجوزي: بلغنا عن علي بن بكار أنه طعن في بعض مغازيه، فخرجت أمعاؤه، فردها إلى بطنه، وشدها بالعمامة، إلى أن قتل ثلاثة عشر علجاً"([158]).

ومنهم عبد الله بن المبارك[159] –رحمه الله– (ت 181هـ) قال عنه صاحب تاريخ بغداد: "كان من الربانيين في العلم، ومن المذكورين بالزهد.. خرج من بغداد يريد [ثغر"> المصيصة، فصحبه الصوفية...([160]). والقصة طويلة وطريفة، وتحتاج إلى مكان أرحب. وابن المبارك أول من صنف بالجهاد ومع ذلك كان يفسر قوله تعالى:"وجاهدوا بالله حق جهاده"، هو مجاهدة النفس والهوى. وقد صدِّرت تراجم الصوفية باسمه.

وكانت وفاته في بلدة "هيت" بالعراق عند انصرافه من الغزو.([161]).

ومنهم أبو سعيد الشهيد –رحمه الله– ووصف بأنه صاحب بأس شديد، وقد حمل في إحدى الغزوات، وقتل نفراً من الأعداء قبل أن يستشهد. وقد أنشد قبل موته:

158- صفة الصفوة: لابن الجوزي. (طبعات متعددة). والعلج: هو الرجل القوي الضخم من كفار العجم= لسان العرب.
159- عبد الله بن المبارك
160- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي (دار الكتب العلمية، بيروت د.ت) ج10 ص 157.
161-- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: للمناوي. (مصر 1937). ج1 ص 176.

أحسن بمولاك سعيد ظنّا *** هذا الذي كنت تتمنَّى
تنحِ ياحور الجنان عنّا *** مالك قاتلنا ولا قتلنا
لكن إلى سيدكن اشتقنا *** قد علم السر وما أعلنا([162]).

ومنهم أبو اسحاق الفزاري[163] –رحمه الله– (ت 183هـ)، وقد أطلق عليه ابن كثير: "إمام أهل الشام في المغازي"([164])، وترجم له صاحب الحلية: "تارك القصور والجواري، ونازل الثغور والبراري". قيل عنه: إنه كان إذا قرأ القرآن بكى وأبكى.

ومنهم أبو العباس السمّاك[165] –رحمه الله– وكان يرتاد الثغور مع أقرانه ([166])، وله مواقف في الدفاع عن أرض الإسلام، وفي وعظ الخليفة هارون الرشيد. ومن وعظه له: اتق الله، فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، فاعدل في الرعية، وانفر في السرية.

ويفرد لنا الجوزي فصلاً خاصاً في كتابه (صفة الصفوة) للزهاد والصوفية الأوائل الذين رابطوا في العواصم والثغور في القرن الثاني، نذكر منهم الشهيد ابن أبي اسحق السبيعي، وحارس ثغر المصيصة محمد بن يوسف الأصبهاني، وحارس ثغر طرسوس أبا معاوية الأسود، والغازي أبا يوسف الغسولي، والفتى المرابط يوسف ابن اسباط ([167]). (ت 199هـ) رحمهم الله جميعاً.

162- حلية الأولياء ج10، ص 165.
163- أبو اسحاق الفزاري إمام الكبير الحافظ المجاهد إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جُوية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الفزاري الشامي . ولجدهم خارجة صحبة . وهو أخو عيينة بن حصن .
164- البداية والنهاية ج10 ص 200.
165أبو العباس السمّاك
166- حلية الأولياء ج8 ص 207.
167- صفة الصفوة ج4، ص 255. وفي مواضع متفرقة. وطرسوس: في مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.

ومنهم أبو يزيد البسطامي [168]-رحمه الله- (ت 261 هـ) الملقب سلطان العارفين. كان خلال وجوده في الثغر يحرس طوال الليل ويذكر الله، ومن أقواله: لم أزل منذ أربعين سنة، ما استندت إلى حائط، إلاحائط مسجد أو رباط، ويقول أيضاً: أقامني الحق مع المجاهدين، أضرب بالسيف في وجه أعدائه([169]).

ومنهم محمد أبو حمزة الصوفي[170]-رحمه الله- (ت 269هـ) جالس أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث، وكان له مهر قد رباه، وكان يحب الغزو عليه.([171]).

قال الجنيد: حبب إلي أبو حمزة الغزو، وكان يأتي بلاد الروم، والناس بالسلاح وعليه جبة صوف([172]). ويقال إنه أول من أظهر الكلام في المحبة والشوق وجمع الهمة وصفاء الفكر.

ومن أكابرهم أستاذ القوم أبو القاسم الجنيد البغدادي رحمه الله (ت 298هـ) وقد أجمع العلماء قاطبة على فضله وإمامته حتى عده ابن الأثير :"عالم الدنيا في زمانه" وقال ابن تيمية فيه: "الجنيد رضي الله عنه سيد الطائفة، إمام هدى"، إلى أن قال: " ومن خالفه فمن أهل الضلال.([173]) وعن جهاده في سبيل الله يقول الجنيد: "وخرجت يوماً في بعض الغزوات،وكان قد أرسل إلي أمير الجيش شيئاً من النفقة، فكرهت ذلك، ففرقته على محاويج الغزاة"([174]). من

168أبو يزيد البسطامي
169-- أبو يزيد البسطامي: لعبد الحليم محمود، (بيروت د.ت) ص 73.
170محمد أبو حمزة الصوفي
171- تاريخ بغداد ج1 ص 390.
172- طبقات الأولياء: للخاوي. (مخطوط بمكتبة الأسد، رقم 16627) ورقة 61 أ.
173- شرح حديث النزول: لابن تيمية. (بيروت 1977)، ص 123.
174- روض الرياحين في حكايات الصالحين. ص 211.

مأثوراته التي قطع فيها الطريق على المنحرفين والمتشبهين بهذه الطائفة قوله: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وإذا كان أئمة من العارفين ترددوا إلى الثغور لنيل نصيب من شرف الجهاد، فإن هناك جماعات منهم استوطنت المدن الثغرية "وكان لها دور هام في حياتها المدنية والجهادية، وعرفوا بالشيوخ المسجدية، كانوا يصلون نافلة نهارهم أجمع، لا يشغلهم عن ذلك إلا النداء بالنفير، أو الغزو، أوتشييع جنازة من يموت من الصالحين، أو عيادة مريض من المجاهدين.([175]).

ومنهم أبو العباس الطبري رحمه الله، وفي قصة موته: أنه كان يعظ المجاهدين في طرسوس، فأدركته مما كان يصف من جلال الله وملكوته وجبروته، فخر مغشياً عليه من الموت.([176]).

و من المناسب أن نذكر مبادئ الصوفية في الجهاد، كما لخصها لنا الإمام الشعراني رحمه الله (ت 937هـ).

[175]- انظر مقال: (حياة الناس في مدن الثغور)، مجلة دراسات تاريخية: العدد 4 لعام 1981.
176-- العصر العباسي الثاني: لشوقي ضيف . (دار المعارف. نصر د.ت). ص 473.

أخذ علينا العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخلنا ثغراً من ثغور المجاهدين أن ننوي المرابطة مدة إقامتنا ولو لم يكن هناك عدو، لاحتمال أن يحدث عدو.

– أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأل ربنا أن نموت شهداء في سبيل الله، لا على فراشنا، فإن لم يحصل لنا مباشرة ذلك، حصل لنا النية الصالحة وحصل الأجر كاملاً.

ومن الصوفية المجاهدين الجزائريين نذكر:

علي بن عبد الله القشيري:

أقام في بجاية مدة طويلة لازم فيها ابن سبعين، وصار له بدوره أتباع ومريدون، وطريقة خاصة به تسمى الششترية انتقل من بجاية إلى مصر مع ما يزيد عن أربع مائة مريد يخدمونه ثم أسس رباطه الخاص، ثم خرج إلى مكة حاجا ليعود إلى بلاد الشام ويشارك في الجهاد ضد الصليبيين.

محمد بن موسى التلمساني :

القدوة الزاهد أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان المزالي التلمساني شمس الدين[177]

محمد بن علي المجاجي[178]:

محمد بن علي أحمد بن عبد الله بن يدر بن سعيد، وينتهي نسبه إلى شرفاء غرناطة بني حمود الحسني وكانوا ملوكا بها، المجاجي،((نسبه إلى مجاجة بالغرب الجزائري،)) سفيان العابدين، وهو ابن ولي الله بن أحمد المجاجي (اَبهلول) .

قال عنه العلامة المشرفي:"كان إماما هماما، عالما زاهدا عابدا، تفرد بهذه الأوصاف الشريفة على سائر علماء عصره، واشتهر بالصلاح والتقوى، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم، وكانت كرامته أوضح من شمس الضحى، وهي دليل استقامته، وكسا علم التصوف طلاوة وبهجة ".

ولد سنة 945هـ= 1535م. اشتهر بتدريس التصوف وعلم التفسير والحديث، وكانت الرحال تشد إليه من مختلف مناطق البلاد، وكان يقيم بزاويته حوالي ثلاث مائة طالب، يدرسون علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث وتوحيد وعلوم اللغة.

---

[177] أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان المزالي التلمساني شمس الدين: ولد بتلمسان، 606هـ=1209م وأخذ العلم منها، ثم انتقل إلى مصر له مؤلفات عديدة منها: أعلام الاجتهاد والعباد أهل الاجتهاد بفصل الرباط والجهاد.

[178] انظر: (945_1008هـ=1535_1589م) ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بمولى مجاجة، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1534، ومنه نسخة ايضا بالمكتبة الوطنية بالحامة مصورة على الميكروفيلم، تعريف الخلف 440/2_449، معجم اعلام الجزائر 286، تاريخ الجزائر الثقافي 12/1، 13، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة (رسالة حول أشرف مجاجة، من تأليف الشيخ علي بن الحاج أحمد عشيط، مرقون على الكمبيوتر).

جاهد جهادا عظيما ضد الإسبان، قال السيد أبو الشريف: "خرجنا إلى ثغر تنس لمحاربة الأسبان الغازين وعدنا ألف وثلاث مائة فارسا، فلقينا سيدي حمد بن علي، وأنزلنا بزاويته بمجاجة وأكرمنا خارج الزاوية لكثرنا، وأمرنا بالجلوس على أربع وعشرون جلسة، وأفاض علينا الثريد واللحم والعسل والسمن، أكلنا وشبعنا واسترحنا ثم توجهنا بعد ذلك نحو تنس.

من طلبته اللذين تخرجوا على يده مفتي الجزائر سعيد قدورة، والشيخ علي مبارك دفين القليعة، الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي من علماء مجاجة، وهو الذي شرح مختصر ابن أبي جمرة في الحديث.

كانت الأسئلة تأتيه من المشرق والمغرب، وقد استفتاه مفتي الجزائر في أمر العبيد. وكان على اتصال وثيق بعلماء المشرق الذين أخذ عنهم أثناء ذهابه إلى الحج.

احتلاله هذه المكانة جعل الباي القيم بالمازونة، غرب مجاجه بحوالي 60 كم، يتخوف منه، فدبر له مكيدة وقتله، فأرسل إليه يستفيد في أمر الزواج من زوجة أبيه التي عقد عليها أبوه ومات ولم يدخل بها، ويروى أنه استفتى بعض العلماء فأجازوا له ذلك لكن جواب سيدي محمد بن علي بالرفض: إنها أمك إنها أمك إنها أمك.

فبعث إليه شبابا على أنهم طلاب علم، و في منتصف الليل وهو يتهجد دخلوا عليه وذبحوه وفروا.

و يروى ا لداي التركي بالجزائر أنه اخذ بثأر الولي الصالح فقتل المنفذين للعملية. وذلك سنة 1008هـ= 1589م.

ألف عدة كتب في شتى الفنون وترك عدة قصائد لكن أغلبها ضاع ولم يبق منها إلا القليل ونسمع بها فقط.

قال المشرفي: " له الباع الطويل العريض في الشعر والقريض وقفت له على قصيدة طنانة سالمة من عيوب الشعر، توسل فيها للمولى جل وعلا مفوضا أمره إليه في المبغضين له والحاسدين من أهل زمانه، أولها:

أفوض للذي فطر السما... احتوت على أمثال وحكم

رثاه تلميذه سعيد قدورة بقصيدة طويلة من 62 بيتا:

مصاب جسيم كاد يصمي مقاتلي ورزء عظيم قاطع للمفاصل

ومنها :

لمنزله كانت تشد رحالنا فمن راكب يسعى إليها وراجع

ترجم له أبو حامد المشرفي في " ياقوتة النسب "، كما ترجم له احمد بن احمد المغراوي في كتابه تمييز الأنساب"، و بعض اخباره موجودة ايضا في " كعبة الطايفيين" لابن الصائم، وفي قصيدة سعيد قدورة

اشارات هامة الى سيرته ومقتله كما يذكر سعد الله في تاريخه.

محمد التواتي[179]: (ق9هـ=15م)

مولى بجاية، من أهل القرن التاسع الهجري، ولي صالح كبير الشأن، عالم على الإطلاق وله مؤلفات، وهو عند أهل بجاية من أهل التصريف، وفتواه لا ترد من بجاية إلى توزر، وهو المعاصر للشيخ يحي العيدلي[180].

179- محمد التواتي حمد التواتي المغربي ، ولد في بلده الجزائر ببلدة "بر تواتي" وإليها كانت نسبته ، وكانت بلدةً مشهورة بالتمر ، أما لقب المغربي ؛ فذلك بسبب أن أهل بلدان ليبيا والجزائر وتونس والمغرب كلهم يلقبون في الحجاز بالمغربي ؛ حيث أن هذه البلدان داخلة فيما يسمى بالمغرب العربي.

نشأته : نشأ في بلدته بر تواتي وحفظ القرآن الكريم ، وتلقى العلم على علماء بلده ، وشارك في الجهاد مع جيش المقاومة ضد المستعمرين ، ورحل في طلب العلم إلى مصر وغيرها حتى استقرّ به المقام مجاوراً في مكة المكرمة وذلك في العهد الهاشمي تقريباً في الثلاثينات الهجرية ، وكان يسكن في جبل السودان ، تزوّج بالجزائر وأُنجبت له بنت ، وفي آخر حياته تزوّج بمكة المكرمة من ابنة عمّ تلميذه علي بن هلال الحتيرشي ولم يكن له منها ذرية.

180- يحي العيدلي هو عالم، فقيه، عابد، زاهد، ولي صالح. ولد في منطقة آث عباس القريبة من إغيل علي ببجاية في تاريخ مجهول. كما لا يعرف من تاريخ وفاته إلا السنة: 881/ 1476 م عن عمر يقارب الـ 85 عاما بقرية ثمقرة. وقد بنيت على قبره قبة موجودة إلى الآن، تعرف باسم (تقرابت).

اشتهرت زاويته بتعليم العلم وخرجت أجيالا من المتعلمين وكانت لها أوقاف كثيرة. جاء في رحلة" بيري رايس العثماني[181] " أن"الشيخ محمد التواتي كان يحمي بجاية من الإسبان وأن زاويته كانت ملجأ للمجاهدين وغزاة البحر، ولما توفي الشيخ سقطت المدينة بأيدي الأسبان وفر منها الأمير الحفصي".

وهو الذي حرض أهل وهران على ومحاربة الأسبان، وأنذر أهلها قبل أن يحل بهم ما حل وأورد ابن سليمان الصائم، له قصيدته هاته في كتابه "كعبة الطائفين":

أيا أهل وهران أنظروا نظر شفقة لبلدتكم قبل أن تردت

وقبل مجيء المنشآت ببحرها وأي قلوب عندها مستقرة

ولا تكلوها غيركم ولئن يكن فما غائب مثل المقيم ببلدة

وفيها أيضا:

وإن ضاع مرساكم فإن ضياعه ضياع بلاد الله شرقا وقبلة

أإخواننا في الله ألقوا مسامعا ولا تهملوا مما أبرزته قريحة

181- بيري رايس العثماني أحمد محيي الدين بيري (بالتركية: Ahmet Muhiddin Piri) الشهير باسم الريس بيري (بالتركية: Piri Reis) (ولد ما بين 1465 و1470 وتوفي ما بين 1554 و1555) هو قبطان وراسم خرائط عثماني. مع اشتداد وطأة الهجمة البرتغالية على كافة البلدان الإسلامية في مطلع القرن السادس عشر، اهتم العثمانيون بالجغرافيا البحرية، واستطاع البحارة العثمانيون آنذاك أن يصلوا إلى المحيط الأطلسي ويبلغوا بحر الهند، ورسموا خرائط السواحل (بورتلان). وأول من برز في ذلك المجال كان بيري رئيس.

وإذا علمنا أنه كان ربانا على إحدى السفن في معركة مودان البحرية عام 1500 م، وكان عمره آنذاك بين 30 - 35 عاما لأمكننا أن نتوقع أنه ولد خلال 1465 - 1470. نشأ بحارا، واشترك مع عمه كمال رئيس (المتوفي في 16 شوال 916 هـ / 16 يناير 1511 م) في بعض المعارك البحرية، ثم جرى تعيينه قائدا على أسطول السويس، واستطاع الاستيلاء على مسقط عام 1551 م، واشتبك في البصرة مع الأسطول البرتغالي وهُزم في تلك المعركة، ثم عاد إلى مصر، ونتيجة لدسائس والي البصرة قياد باشا تم إعدامه في مصر عام 960 هـ (1552 م) أو عام 962 هـ (1555 م) حسب بعض

ومن الواضح أن القصيدة قيلت قبل احتلال وهران من طرف الأسبان وساعة أن كان أهل الأندلس في صراع معهم.

جاء في رحلة (بيري رايس) أن الشيخ محمد تواتي كان يحمي مدينة بجاية من الأسبان و أن زاويته كانت ملجأ للمجاهدين وغزاة البحر. أنه حين توفي الشيخ سقطت المدينة في أيد العدو. وفر منها الأمير الحفصي182.

محمد التواتي183 : (ق13 هـ=19 م محمد التواتي المعروف ب "العالم"، من أبرز رجالات الطريقة السنوسية والعضد الايمن للشيخ محمد السنوسي. أصله من توات، كان ناقما على الفرنسيين الذين يصفونه بالتعصب.ذهب إلى الشيخ السنوسي، تولى عنده منصب قاضي وكاتب المهدي الخاص، والمشرف العام على الزاوية الأم بجغبوب.

قال عنه الحشائشي184 في معرض حديثه عن مساعدي الشيخ السنوسي:".... ومنهم الشيخ سيدي محمد التواتي، أصله من توات، على يده جميع الصادرات والواردات من الأجوبة، وهؤلاء كلهم أطواد في سائر العلوم العقلية والنقلية خصصوصا في التفسير". ثم عينه مقدما

182- من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي/ أبو القاسم سعد الله. ج4 ص466

183 انظـــر:جلاء عن طرابلس الغرب ،لمحمد بن عثمان الحشائشي، تحقيق على مصطفى المصراتي، لبنان، ص 153 ، اقليم توات ص 111 ، تاريخ الجزائر الثقافي 254/4، وهوعنده (احمد التواتي).

184الحشائشي: محمد بن عثمان الحشائشي الشريف التونسي، عالم مؤلف رحالة مثقف، ولد بتونس 1271ه ونشا في بيت علم وجاه، تلقى العلم على يد شيوخ اجلة، منهم : احمد الورتتاني، سالم بوحاجب ، عمر بن الشيخ...تولى التدريس بجامع الزيتونة، ظل مرتبطا بالتدريس مواظبا على الاشراف على خزائن الكتب العلمية بجامع الزيتونة الى ان وافاه الاجل سنة 1330ه=1912م ، له تاريخ جامع الزيتونة، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب وهي رحلته التي عرفت شهرة كبيرة . انظر : تراجم المؤلفين التونسيين 144/2_ 147،الاعلام46/7.

للطريقة السنوسية185 على المنطقة المغربية (فزان، توات، وبلاد التوارق) وهي المناطق نفسها التي شاركت في ثورة الشريف محمد بن عبد الله186. وبسبب نشاطه تزايد تأثير الطريقة السنوسية في الجنوب الجزائري، كما سعى إلى توحيد صفوف الأهالي في منطقة تيكديلت تحت لواء السنوسية.

أدى دورا أساسيا في ثورة الشريف بن عبد الله (ألف وثمان مئة وخمسون)، حيث كان يدعمه بالمال والرجال والسلاح، ويدعو إلى الثورة ضد المحتل الأجنبي، وإلى الجهاد في كل مكان حل به، ويتنقل من منطقه إلى أخرى لحث الناس عليه وجمع الأموال والسلاح، وأفتى بقتل إحدى البعثات الاستعمارية بمن فيهم من المسلمين.

ورد ذكره كثيرا في التقارير الفرنسية بصفته من أكبر أعداء فرنسا، وجاء في تقرير الكوماندان ريبورتز:"أن السنوسية قد أحرزت في المناطق (توات) خلال هذه السنوات الأخيرة على تقدم سريع، حتى أن رئيس مقاطعة عين صالح قد أصبح واحدا منهم، وهو أكثرهم تشددا..."

ولعله من أبرز الأدلة على الدور الذي قام به التصوف والصوفية في مقاومة الاحتلال الفرنسي، والحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية بالجزائر، ومن الوجوه المشرفة في تاريخ الجزائر المجاهدة، ومن الذين جمعوا بين جهاد السيف وجهاد القلم.

185الطريقة السنوسية : لاسسها محمد بن علي السنوسي الخطابي، المولود ببلدة (ينّل) قرب مسنغانم، في عمالة وهران سنة 1792 ، وتوفي في واحة سيوة في ليبيا سنة 1859 ، وتعتبر طريقته من الطرق المجاهدة في المغرب العربي خصوصا في ليبيا، جل اتباعها في الجزائر (مستغانم) وزاويتها هناك هي زاوية طكوك. انظر ترجمة السنوسي في كتابنا هذا.

186محمد بن عبد الله : انظر ترجمته في كتاب((محمد الطيب بن ابراهيم)).

المهدي السكلاوي الزواوي187: ـ

من كبار رجالات الطريقة الرحمانية وزعمائها بالجزائر. ومن قادة الجهاد بها حيث عمل رفقة احمد بن سالم خليفة الأمير عبد القادر في زواوة.

ولد بدلس سنة 1200هـ =1786م.

ولما انتهت مقاومة الأمير أين حصل من الدولة الثمانية على الأرض لنفسه و اسرته و المهاجرين معه، هاجر رفقة أسرته و المهاجرين إلى بلاد الشام 1263 هـ

ووجه من هناك دعوته إلى أعيان زواوة للهجرة، فاستجاب عدد منهم.

تولى بدمشق مشيخة الطريقة الخضرية، وكان له تأثير كبير على الحركة الدينية ببلاد الشام. وكانت له أوراد يلقنها للمريديين، و منهم بعض حكام دمشق وعلمائها..

له سمعة حسنة واسعة في الجزائر والشام. أخذ عنه الشيخ محمد أمزيان الحداد الطريقة الرحمانية، كما أخذ عنه بالشام الشيخ محمد أمزيان الحداد الطريقة الرحمانية، كما أخذ عنه بالشام الشيخ محمد المبارك الجزائري188. قال عنه صاحب حلية البشر:"أخذ عنه كبراء دمشق وعلمائها وحكامها

وفضلائها، منهم أحمد عزت باشا.". وتطلق عليه المصادر الفرنسية لقب "المتعصب الديني". له نظم في التصوف متداول بين أتباع الطريقة الرحمانية بالجزائر.

توفي بدمشق سنة 1278هـ ودفن بجبل قاسيون بدمشق.

187انظر: حلية البشر للبيطار ،معجم اعلام الجزائر 353 ،المهجريين الجزائريين ،تاريخ الجزائر الثقافي 5 /521

188-محمد المبارك :سبقت ترجمته في كتاب((محمد الطيب بن ابراهيم)).

الأخضر بن خلوف[189]

كان مجاهدًا كبيرًا شارك في كثير من المعارك ضد احتلال الأسبان للقطر الجزائري، ومعركة مزغران أكبر شاهد له على ذلك، فقد شارك فيها بقوة وبسالة ضد هجوم "الكونت دالكوت" le comte d'Alcaudete حاكم مدينة وهران على مدينة مستغانم عام 1548 م وسنة 1557 م، حيث انهزم الجيش الإسباني وقتل الكونت برفقة ابنه، وأرَّخ الخلوفي بنفسه لهذه المعركة في قصيدة مفصلة خصصها لهذا الغرض مطلعها:

يا فارس من ثم جيت اليوم عيد أخبار الصح معلومة
ياعجلان ريض الملجوم رأيت جنود الشوم ملمومة
يا سايلني عن طراد الروم قصة مزغران معلومة

وهذه المعركة كتب عنها المؤرخ بول روف Paul Ruff كتابه الاحتلال الاسباني لوهران في عهد الكونت دالكوت[190].

المختار بن عبد الرحمن الجيلالي[191] :

189--هو لكحل بن عبد الله بن خلوف، وأمه كلة بنت سيدي يعقوب الشريف. وفي تسميته لكحل روايات من بينها تبركًا باسم الولي الصالح سيدي محمد لكحل ورؤيته الحزام الأخضر المرصع بقطع ذهبية، والرواية الأخرى تقول إنه كان وحيد أمه التي سمته لخضر، وخشية العين الحاسدة سمته لكحل، وكان سيدي لخضر في قصائده يذكر تارة اسم لخضر وتارة أخرى اسم لكحل وتارة أخرى باسم الخلوفي نسبة إلى قبيلته أولاد خلوف وإلى جده الخلوف. يقول في إحدى قصائده:

الأخضر ولد الخلوف المكنى لكحل والكنية ما هي حرام سماتي جدي***

***ليست لدينا معلومات دقيقة عن تاريخ ميلاده، لكن ما جاء في قصيدة الوصية، المعروفة عند رواة قصائده بالوفاة، ما يقربنا من تاريخ مولده حيث يقول رحمه الله فيها:

من القرن الثامن عديت سنين أوزابع والأيام هاملة والجالب مجلوب
بفضل النبي تميت القرن التـاسع والفلك ينثنى والحاسب محسوب

والتي نستخلص منها أن سيدي لخضر بن خلوف ولد في أواخر القرن الثامن هجري، في حدود سنة 899 هـ الموافق لـ 1479 م، وتوفي في سنة 1024هـ الموافق لسنة 1585 م، ويكون قد استوفى القرن التاسع كله ليتوفاه الله في أوائل القرن العاشر هجري بعد أن عمر طويلاً (حوالي 125 سنة ونصف السنة)، ويحدد لنا بالضبط أيضًا في قصيدته تلك عمره فيقول:

جوزت مائة وخمسة وعشرين سنة حساب وزدت من ورا سني ست شهور

190-- Bibliothèque, Paul Ruff, La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du comte d'Alcaudete (1534-1558) histoire du Maghreb

191-- (1201 _ 1277 هـ = 1784 _ 1862 م) ص(390-391) المختار بن عبد الرحمان بن خليفة الإدريسي الخالدي (نسبة إلى قرية سيدي خالد بنواحي بسكرة بالجنوب الجزائري) الجيلالي ، مؤسس زاوية أولاد جلال، من شيوخ الطرق بالزاب.

ولد بقرية سيدي خالد سنة 1201هـ= 1784م، من أبوين شريفين ربياه تربية دينية خالصة، حفظ القرآن في سن مبكرة وتفقه على جلة من العلماء برز في العقائد وعلم الكلام.

ساند ثورة الزعاطشة التي قامت في نواحي بسكرة سنة 1849، وأرسل النجد إلى القائد أبي القائد أبي زايان، واستجابت الرحمانية في المنطقة لدعوته إلى الجهاد والمشاركة فيها مع الزعاطشة، اضطر بعدها إلى الاستسلام سنة 1850م.

وتخرج على يده الكثير من العلماء الأجلاء لعل أبرزهم: الشيخ محمد الشريف بن الأحرش والشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي والشيخ عطية النايلي.

جمع مراسلات مشايخ الطريقة الرحمانية وكتاباتهم، كما ترك مجموعة كبيرة من القصائد الصوفية أغلبها بالملحون. كما ذكر له تأليف في التصوف بمكتبة الشيخ بن عزوز القاسمي.

توفي في 19ذي الحجة من سنة ألف وثمان مئة و إثنان و تسعون ميلادية، وخلف وراءه أولادا صغارا، فأوصى عليهم وعلى الزاوية تلميذه الأشهر محمد بن أبي القاسم الهاملي، وبعد أن رتب شؤونها ونظم أمورها عاد إلى بلده ا.

رثاه الشيخ المكي بن عزوز في إحدى قصائده معتبرا أن فقده بمثابة الليل الدامس. وترجم له ابنه محمد الصغير في "تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان

محمد علي السحنوني :(ق14هـ=ق19م)

من شيوخ الطريقة الرحمانية وزعماء ثورة ألف وثمان مائة و واحد وسبعون ميلادية ، ومن المدرسين بالحرم المدني.

لا نعلم تاريخ ميلاده،درس في زاوية الأسرة السحنونية الأصلية، ثم في زاوية الشيخ الحسين بن أعراب بتيزي راشد، أخذ الطريقة الرحمانية على يد الشيخ أمزيان الحداد. وأصبح مقدما للطريقة الرحمانية في منطقة الأربعاء ناث يوراثن. تولى التدريس بالزاوية

ثم ارتحل في طلب شيخ مربي، والتقى بالشيخ محمد بن عزوز البرجي فأخذ عنه العهد والتلقين وبعض سلوكه في تدرج بعض الأسماء، و لما قربت وفاته أوصاه بملازمة الشيخ علي بن عمر الطولقي، وبعد وفاة الشيخ محمد بن عزوز سنة 1233هـ= 1818م، لازم خدمة علي بن عمر ثلاثة عشر سنة ، مواظبا فيها على الصيام والعبادة حتى فتح الله عليه الفتح الأكبر على يد الشيخ علي بن عمر.

أسس زاوية بقريته سيدي خالد، وبسبب مشاكل حدثت له من طرف أهلها انتقل إلى قرية أولاد جلال المجاورة، وهناك أسس زاويته التي عرفت شهرة واسعة في ظرف وجيز، و أمها الطلبة من كل حدب وصوب، وكان لها دور كبير في تحفيظ القرآن الكريم، وتدريس العلوم الشرعية ونشر الطريقة الرحمانية وإطعام الطعام، وإيواء الفقراء و المساكين.

اشتهر بالورع ونشر العلم، كما اشتهر بقدرته في التأثير على قلوب سامعيه وعم نفوذه المناطق القريبه وكذا أولاد نايل، والسحاري الذين كانوا يزورون زاويته بأعداد كبيرة.

السحنونية إلى غاية سنة ألف وثمان مائة و واحد وسبعون ميلادية ، حيث شارك في الثورة إلى جانب

المقراني والحداد، تولى قيادة "سهل سباو"، وشارك في معركة "إيشريضن" الشهيرة حيث تزعم جناح المسبلين

ألقي عليه القبض رفقة أحمد بومرزاق في "الويسات" قرب ورقلة، وذلك سنة ألف وثمان مائة و إثنان و تسعون . حكمت عليه المحكمة بالنفي إلى "كايان" ثم سمح له بالاقامة في غير الجزائر، فاختار المدينة المنورة، ودخل الحجاز عن طريق اليمن. حيث ظل هناك مدرسا فترة من الزمن، ومن اليمن دخل مكة في موسم الحج،وفي المدينة المنورة أقام ودرس وتزوج امراة من آل القاضي أرسلت إليه من الجزائر، وظل يراسل بني قومه، ومنهم محمد السعيد السحنوني إلى وفاته نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

له تأليف في الحديث والوعظ. وقد كان حيا بعد 1309 هـ =1891م حسب رسائله.

إلا أننا نجد أبا حامد المشرفي يذكر سببا آخر لاعتقاله بوهران حين يقول : " وكان الأتراك يتلمحون فيه المهدوية المنتظرة، شد الرحلة للحجاز يغنم حجة التطوع فتبعته الحواضر والبوادي، وبنت فساطيطها في محلته وجندت عليه الجنود في حلته ورحلته ففزعوا من ذلك وخافوا منه فردوه عن وفاء مراده، و لما انصرف الناس عنه جاءوا من زاويته وعلقوه

وهران، وفيه يقول العلامة "السنوسي بن عبد القادر192 "الراشدي رحمه الله.

عول على الصبر لايحزننك اشجان ولايسوك ما فجتك وهران

أما هي الدار لا تؤمن غوائلها إلا ومن صدها وهن وهجران

ما انت اول من ولا اخر ولا باوسط من خانتهازمان

أنظر الى ابن رسول الله ثم الى هلم جرا وما لاقاه عثمان

192السنوسي بن عبد القادر الدحاوي : فقيه ، النحوي ، بياني ، اصولي ، و هو ابن الشيخ عبد القادر بن السنوسي ، صاحب الفهارس المشهورة بالشرق و شيخ ابي راس المعسكري ، تتلمذ الابن على يد الشيخ محي الدين و ابي راس ، عرف بقول الشعر ، بعض نصوصه موجودة في (فتح الالهو منته) لابي راس.

تلك العوائد اجرها على قدر من دبر الامر فيمن شاء ديان
مهلا عليك وإن ساءت ظنونهم سيهزم الجمع أو يشد ديوان
يكظم الغيظ من خصم ومن حكم ويكشف الغيب أن صدقت وخانوا
وأنت والله ما زلت على سن وتحمل الكل لا ريب ولا ران

توفي سنة 1249هـ=1833م، وخلفه ابنه محمد السعيد في رئاسة الزاوية.

مصطفى بن محمد بن عزوز:193(1220_1282هـ=1803_1865م)

أبو النخبة العارف بالله الولي التقي النقي الورع شيخ الطريقة الخلوتيةالرحمانية، سيدي مصطفى بن عزوز البرجي. من علم وفضل وصلاح، وزاويتهم بصحراء الزاب من اعمال بسكرة، ببلدة صغيرة تسمى "البرج".

ولد رضي الله عنه بزاوية والده الشيخ سيدي محمد بن عزوز البرجي بالبرج القريبة من طولقة بالجنوب الجزائري، وذلك سنة 1220هـ=1803م.

أخذ العلم عن شيوخ بلده، كما اخذ عن محمد الاميراحد شيوخ الازهر الشريف، وابراهيم الباجوري والسنوسي194، واخذ الطريقة الرحمانية عن الشيخ علي بن عمر.

تولى زاوية والده الشيخ محمد بن عزوز البرجي بعد وفاته سنة 1233هـ، وذلك تحت اشراف شيخه بن عمر الى ان آنس منه القدرة على تسيير شؤونها.

وعند احتلال بسكرة سنة 1843، هاجر الى نفطة واسس بها زاوية رحمانية، اصبحت ذات شهرة واسعة في العلم والتصوف، وملجأ للهاربين من ظلم الاستعمار الفرنسي، وقاعدة خلفية لمقاومة الاحتلال. قال عنه

193انظر: اتحاف اهل الزمان 142/8، 143، ديبون وكوبولاني 394،395، ايضاح المكنون 201/1، هدية العارفين 355/6،الدر المكنوز8 ـ 14، معجم المؤلفين، أعلام الجزائر 232 وأخطأ في تاريخ وفاته والصحيح ما أثبتناه ،مشاهير التونسيين 640، تاريخ الجزائر الثقافي 146/4 وصفحات كثيرة، قد صنفالاستاذ علي الرضا الحسيني في ترجمته كتاب ((زاوية مصطفى بن عزوز)).

194السنوسي: انظر ترجمته في حرف الميم، محمد بن علي السنوسي، في كتابنا هذا.

ابن ابي الضياف195:" دخل الى بلاد الجريد، وبث فيها الطريقة الرحمانية في العروش، وجدد لهذه الامة أمر دينها، وطار صيته وظهرت كرامته."

ويقول الشيخ ابراهيم خريف:"ورد الزاب مهاجرا، القدوة المرشد، صفوة البردة، وخلاصة الصالحين الخيرة، الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز البرجي، فاستوطن مع عائلته وعدد كبير من اتباعه، فاقبلت عليه البلاد وهرعت اليه العباد يلتمسون بركته."

وانشأ في زاويته مدرسة هامةً لتعليم القرآن الكريم وحفظه، وتدريس كافة فنون العلم، للطلبة المتفرغين لطلب العلم، وجهز بيوتا لسكنى أحظر لها كبار العلماء من مختلف الجهات، من امثال: الشيخ الصالح الحمادي، احمد السنوسي لقفصي، ابراهيم التونزري بن عزوز....وغير هؤلاء من الفضلاء الأجلاء، وصارت بهم الزاوية روضة من رياض العلم ومركز اشعاع وتنوير، كما يشير الباحثون إلى ان سبب التأسيس كان بالدرجة الاولى لمواصلة الجهاد ضد المحتل الفرنسي واتخاذ الزاوية قاعدة خلفية للمجاهدين، ولجمع السلاح والمال وامداد الثوار.

وقد جاء في أحد التقارير الفرنسيةأن شيخ الطريقة الرحمانية هوعدو الفرنسيين اللدود، يستقر بزاويته في نفطة، ومنها يوفد المقدمين إلى حيث

تدعو الحاجة.... لذلك فلن يهدأ لنا بال في الجزائر مادمنا نتسامح في ترك زعماء يستقرون قرب الحدود الجزائرية ويمارسون كل النفوذ لدى قبائلنا".

وكان باي تونس المشير محمد باشا يعظم شأنه ويجله، واجتمع به غير مرة، وقد أصدر أوامره إلى رجال الدولة بإسباغ الحرمة والحماية على الزاوية ولكل من يلتجئ إليها، تعظيما وتقديرا لشأن الشيخ.

195ابن ابي الضياف: الوزير احمد بن الحاج بن ابي الضياف، صاحب كتاب ((إتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان))الذي اشتهر به وخلد ذكره، ولد بتونس 1217هـ =1822م . درس على علماء بلدته، واكتسب ثقافة دينية وادبية عالية، تولى على صغر سنه 1822م خطة العدالة ثم خطة الكتابة 1827 ، ورقي الى رتبة وزير قلم، واستمر في مهامه الى أن تقدمت به السن فاعفي من مهامه، واجريت له جراية حتى وفاته 1291هـ=1874م بتونس. عرف بطيب خلقه وحسن سلوكه وسمعة معارفه وغزارة علمه، ترك شعرا بليغا. انظر: ابن ابي الضياف حياته ومنزله، لاحمد عبد السلام، تونس، 1984، المؤرخين التونسيين ص 383، 437.

أسس عدة زوايا أخرى في تونس كان لها أثر بعيد في تعليم القرآن الكريم وحفظ العقيدة الإسلامية منها: زاوية توزر، القصرين، جرجيس، جندوبة، غدامس، النوبة....وله زوايا في خارج تونس منها في درنة بليبيا.

جاء في وصوفه: "كان تقيا نقيا فقيها صوفيا، قسم حياته بين تلاوة وذكر ونظر في الملكوت، ووعظ وإفادة، وهداية إلى طرق السعادة، وإصلاح ذات البين وإعانة المحتاجين، ورحمه المساكين وهداية الضالين إلى غير ذلك. كان رحمه الله فصيح اللسان، بليغ البيان في أسرار القرآن، صاحب ذوق في مقام العرفان، متواضعا على رفعة هذا الشأن، ولم يزل على حاله، ناظرا لمآله يحاسب نفسه على دقائق أعماله".

له المؤلفات: رسالة في مناقب الشيخ علي بن عمر الطولقي، بهجة الشائقين، حزب التوسل بأسماء الله الحسنى، عرف شهرة واسعة لدى الأوساط الصوفية. وللشيخ إبراهيم الرياحي196 فيه قصائد كثيرة ومدائح.

المبروك بن محمد بن عزوز البرجي197:

الولي الصالح، العالم المجاهد، الشاعر الناثر، الشيخ المبروك بن محمد بن عزوز البرجي الإدريسي الحسني، دفين مدينة الأغواط، جد الأسرة العزوزية الشهيرة بالأغواط.

ولد ببرج بن عزوز بالقرب من طولقة بالجنوب الجزائري، سنة 223هـ=1807م.

تتلمذ على يد والده الشيخ محمد بن عزوز البرجي، شارك رفقة إخوته في ثورة الأمير عبد القادر، ولم يعد إلى البرج إلا بعد انتهاء المقاومة أي في سنة 1263هـ=1847م، أسس بعدها زاوية بالزعاطشة وأيد ثورة بوزيان 1849، وبعد فشل الثورة لجأ إلى مدينة الأغواط وظل يتردد عليها، حفاظا على العلاقات مع الطريقة التيجانية، وفي سنة 1269هـ=1852م، استقر نهائيا بالأغواط أين أنشأ زاوية رحمانية هناك، والتي عرفت شهرة واسعة في ظرف وجيز.

196 (1223_1305هـ=1807_1887م)الشيخ ابراهيم الرياحي: ابراهيم بن عبد القادر بن احمد الريحاني، ولد ببلدة(تستور) سنة 1180هـ =1767م.، وبها حفظ القرآن الكريم ثم انتقل الى تونس العاصمة، وتلقى عن علماء عصره وانتصب للتدريس بجامع الزيتونة، وعرف عنه قوة الحافظة والذكاء، اخذ الطريقة الشاذلية عن الولي الصالح الشيخ البشير الزواوي، ثم أخذ الطريقة التيجلنية وقام بنشرها في البلاد التونسية، ولبس لها زاوية في النهج الذي يحمل اسمه اليوم بتونس. تولى عدة مناصب علمية، وعينه المشير احمد باي

197انظر اعيان المغاربة لقوفيان ص 202.

أدى دورا هاما في مقاومة الاحتلال الفرنسي، بل كانت أسرة بن عزوز العدو الأكبر لفرنسا في الجنوب الجزائري. وكان أقرب أصدقاء الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي إلى قلبه، والذي قابله في زاوية الشيخ المختار سنة 1857م.

له قصائد عديدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم توفي سنة 1305هـ=1887م عن عمر يناهز 80 سنة.

محي الدين بن مصطفى الحسني :

محي الدين بن مصطفى بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار....وينتهي نسبه إلى مولانا إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر.أمير بوادي الحمام سنة 1190هـ=1776م، درس على يد أبيه وعلى شيوخ زهوية القيطنة ومنهم الشيخ عبد القادر المشرفي، ورث عن والده مشيخة الزاوية وأصبح من علماء الظاهر والباطن، اشتهر بالصلاح وسداد الرأي وغزارة العلم، تزعم حركة الجهاد ضد الفرنسيين مع ابنه عبد القادر. كان يلقن الناس الأوراد القادرية.اشتهر محي الدين بمقاومة سياسية الاتراك، ولذلك وشى به بعض خصومه الى الباي بن موسى بوهران، وأشاروا عليه بأن يرحله إلى هناك تحت رقابته الفعلية، فامتثل محي الدين لأوامر الباي وانتقل بأسرته إلى وهران

وأقام هناك سنتان، ولما تأكد الباي من بطلان الوشاية رفع عنه الإقامة الجبرية.

إلا اننا نجد أبا أحمد المشرفي يذكر سببا اَخر لاعتقاله في وهران حين يقول: "وكان الأتراك يتلمحون فيه المهدوية المنتظرة، شد رضي الله عنه الرحلة للحجاز يغنم حجة التطوع فتبعته الحواضر والبوادي، وبنت فساطيطها في محلته وجندت عليه الجنود في حلته ورحلته ففزعوا من ذلك وخافوا منه فردوه عن وفاء مراده ولما انصرف الناس عنه جاءوا به من

زاويته وعلقوه بوهران، وفيه يقول العلامة "السنوسي بن عبد القادر198 " الراشدي رحمه الله:

عول على الصبر لا يحزنك أشجان ولايسوك ما فجتك وهران
أما هي الدار لا تومن غوائلها إلاومن صدها وهن وهجران
ما أنت أول من دهت ولا اَخرا ولا بأوسط من خانته أزمان
انظر إلى ابن رسول الله ثم إلى هلم جرا وما لاقاه عثمان
تلك العوائد أجراها على قدر من دبر الأمر فيمن شاء ديان
مهلا عليك وإن ساءت ظنونهم سيهزم الجمع أو يشد ديوان
يكظم الغيظ من خصم ومن حكم ويكشف الغيب أن صدقت وخانوا
أنت والله مازلت على سن وتحمل الكل لا ريب ولا ران

توفي سنة 1249هـ=1833م، وخلفه ابنه السعيد في رئاسة الزاوية.

محمد الطيب بن إبراهيم الشريف199(1240.1319هـ=1825.1901)

محمد الطيب بن إبراهيم بن أحمد الشريف "مولى ورقلة"، المعروف بـ "محمد بن عبد الله"، وهو الإسم الثوري له. من رجالات الطريقة القادرية المشهورين بالقطر الجزائر وتونس، ومن قادة الكفاح المسلح ضد الاحتلال الفرنسي في التاسع عشر ميلادي. ينتهي نسبه إلى سيدي الجيلاني، وهو من السلالة التي هاجرت من العراق إلى تلمسان، ثم انتقل جده أحمد إلى نفطة.

ولد الشيخ محمد الطيب بزاوية والده الشيخ إبراهيم بن الشريف ــالتي مرت معنا ترجمتهــ بنفطة، وذلك حوالي سنة 1240هـ. أخذ العلم عن والده وعن علماء الزاوية، وبرز في العلوم العصرية خصوصا.

198السنوسي بن عبد القادر الدحاوي: فقيه، نحوي، بياني، أصولي، وهو ابن الشيخ عبد القادلر بن السنوسي، صاحب الفهارس المشهورة بالشرق وشيخ أبي راس المعسكري، تتلمذ الأبن على يد الشيخ محي الدين وأبي راس، عرف بقول الشعر، بعض نصوصه موجودة في ((فتح الإله ومنته)) لأبي راس.

199انظر ديبون وكوبو لاني 308، محاضرة حساني الحسن((جوانب مضيئة من كفاح محمد الطيب بن إبراهيم))، ورقة عمل: مقاومة الشريف بن عبد الله، إعداد المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية.

كان كثير التردد على منطقة ورقلة، كون أخواله من منطقة الشعانبة القاطنين بها، ولكونها من مراكز الطريقة القادرية الهامة بالجنوب الجزائري.

كلفه والده بمرافقة الثائر بن ناصر بن شهرة إلى الجزائر، فكان ينسق معه العمل الجهادي، ومن هنا أخذ اسمه الثوري "محمد بن عبد الله" تبركا باسم الرسول صلى الله عليه وسلم200. شارك في عدة ثورات منها: ثورة الزيبان1849، ثورة الناصر بن شهرة، ثورة بوشوشة، كما شارك في الدفاع عن مدينة الأغواط سنة 1852.

محمد بن عبد القادر المعسكري الملقب ب(أبوراس)(1165_1238هـ=1751_1823م العلامة الحافظ البحر أبوراس المعسكري الراشدي نسبة إلى الراشدية المعروفة اليوم بـ "معسكر" يتصل نسبه بالأدارسة ولد بنواحي معسكر بـ1751م.

تعلم على يد الشيخ منصور العزيز تلميذ سيدي أحمد بن ثابت التلمساني. داع صيته وتقلد منصب القضاء وحصلت له حظوة لدى أمراء الجزائر، وباشوات الغرب وحكامه ولما دعا داعي الجهاد لفتح وهران شارك

أبوراس مع الباي محمد سنة 1266هـ=1795م. توفي سنة 1823م وصلى عليه ألف وخمسمائة نفس جلهم من حملة القرآن الكريم والشرفاء ودفن بمعسكر وهو الآن من المزاران العامة لأهل المدينة.

محمد بن العربي بوعمامة (1327هـ_1908م)

محمد بن العربي بن التاج الشهير بـ (بو عمامة) كان من رجال الدين ومن أتباع الطريقة الطيبية القادرية نشأ ببلده (مغراز التحقاني) بالغرب من البيض.

أنشأ زاوية هناك فشاع أمره بسرعة وكثر أتباعه ومريدوه وتوسعت مداخليه المادية من طرف المريدين، أعلن الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي يوم 22أفريل1881م، واضطر في

200وهذا ربما سبب الخلط الذي وقع فيه كثير من الباحثين والمؤرخين، في عدم تحديد شخصية العالم الصوفي والمجاهد الثائر محمد بن عبد الله، والذي يثبت ويؤكد أن الشيخ محمد بن عبد الله هو القصيدة التي مدحه بها أحد أشهر الملحون بالجنوب الجزائري ((حرز الله بن الجندي)) (ت1896م) والتي نقتطف منها هذه الأبيات: والطيب سي محاد جا عوده غوارِ_ بن عبد الله الشريف ينسب للسادات_طاعت ليه المخادمة وأولاد أزيار_ تقرت بوادي ريغ زيد بلاد توات_ يقيمو يوم الطراد يديه المشوار_ يلقى عن بوعلام في يوم الندهات..

الآخر إلى الالتجاء عند أتباعه بإقليم توات بالجنوب الجزائري ومن هناك واصل كفاحه إلى وفاته 1327هـ=1908م.

قدور بن محمد الجزائري (ابن رويلة) (ق 1272 هـ = 1855م)

قدور بن محمد بن رويلة الجزائري الفقيه الصوفي المجاهد من رجالات العلم و الجهاد في البلاد الجزائرية ومن أتباع الطريقة القادرية وعلمائها.

ولد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلم بعد احتلال الفرنسيين عين كاتبا للأمير عبد القادر و مستشارا له من آثاره

"وشاح الكتائب وزينة الجيش" توفي ببيروت 1272هـ.

محمد بن احمد التيجاني (1212 _ 1243 هـ = 1797 _ 1829م)

الشيخ محمد الكبير خليفة والده الشيخ التيجاني صاحب الثورة ضد الأتراك.

ولد حوالي1797 حافظ على استقلال الطريقة التيجانية ضد نفوذ الأتراك ثم قاد ثورة ضد الباي حسن بمؤازرة أتباع زاويته سنة 1827 فجمع عرب الصحراء وجيش جيشا وجعل يدا مع حشم غريس

استولى على بعض الجهات في معسكر، أظهر شجاعة نادرة إلى أن قتل وبعثوا برأسه إلى الجزائر ووضعوها على عمود قبالة الباب الحديد بعد انتهاء الواقعة المعروفة تاريخيا (بواقعة عوامة بالقرب من معسكر).

ومما قاله الصوفية في الجهاد والشجاعة مذكرة الشغراني في مؤلفه لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود، المحمدية ." أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يقسم لنا جهاد، ألا ننفر من الأمور التي تلحقنا بالشهداء في الثواب الأخروي".(201).

وما أحسن وصف الشاعر الصوفي البوصيري لهم حين قال:

201-- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود، المحمدية: للشعراني. (حلب 1991)، ص 146، ومابعدها.

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ماذا رأى منهم في كل مصطدم

كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعَدَا قَرِمِ

يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ تَرْمِي بِمَوْجٍ مِّنَ الأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ

مفهوم التصوف :

"تعريف التصوف"

أولا:في اللغة:

- قيل: "الصوف للشاة والصوفة أخص منه... وصوفة: أبو حي من مضر، وهو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج، أي يفيضون بهم.
- قال الشاعر:

ولايريمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجيزوا آل صوفانا

- "وكبش صاف، أي كثير الصوف.. وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف أي عدل عنه، ومنه قولهم: صاف عني شر فلان، وأصاف الله عني شره[202]".

ومن هذا النص يتبين أن كلمة الصوف تأتي بمعنى الصوف المعروف للشاة ونحوها، كما أنها تأتي بمعنى عدل ومال.

وقيل: "الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح ، وهو الصوف المعروف. والباب كله يرجع إليه. يقال: كبش أصوف وصوف وصائف وصاف، كل

202الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 4\1389،1388.

وانظر لسان العرب: 9\200، والقاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر بدون طبعة وتاريخ)3\169.

هذا أن يكون كثير الصوف. ويقولون: أخذ بصوفة قفاه، إذا أخذ بالشعر السائل في نفرته... وأما قوله: صاف عن الشر، إذا عدل، فهو من باب الإبدال يقال: صاف إذا مال".

وقد تعددت الأقوال حول نسبة الصوفية، واختلف الباحثون حولها. كما اختلف الصوفية أنفسهم في ذلك، فمن هذه الأقوال:

أ ــ بالنسبة إلى الصفة[203]:

وممن نقل هذا السهروردي[205204]، والهجويري[207206] والكلاباذي[209208].

وقد ردت لغويا من الهجويري، والسهروردي، والقشيري[210]، وابن الجوزي[211]، وشيخ الإسلام ابن تميمة[212].

وابن خلدون[213] في مقدمته[214]، واللفظ لابن تميمة: "... وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صفي.ومن الواضح أن ادعاء المتصوفة، ومن ذهب معهم اشتقاق (تصوف) من صفّة المسجد يستهدف بها ارتباط التصوف في نشأته الأولى بعصور تاريخية متقدمة، بل

203أهل الصفة: كانوا فقراء يقدمون على رسول الله، وليس لهم أهل ومال، فبنيت لهم صفة في شمالي مسجد رسول الله، ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم، وهم معوفون بالعبادة.
انظر: تلبيس إبليس عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق د. السيد الجملي. ط6(بيروت: دار الكتاب العربي- 1413هـ) ص201، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تميمة (مطبعة معالاف لاهور _1397هـ) ص12.

204هو عمر ابن محمد بن عبد الله بن محمد شهاب الدين أبو حفص السهروردي، شيخ الصوفية ببغداد، صاحب كتاب "عوارف المعارف" توفي سنة 230هـ (انظر: البداية والنهاية (بيروت: دار الفكر) بدون طبعة وسنة نشره) 13\138.

205انظر عوارف المعارف. عمر بن محمد السهروردي (القاهرة: مكتبة القاهرة- 1393هـ) ص62، رقم الطبعة بدون.

206هو أبو الحسن علي بن علي الغزنوي الحلابي الهجويري، صاحب كتاب "كشف المحجوب، توفي بين علي الغزنوي الحلابي الهجويري، صاحب كتاب "كشف المحجوب، توفي بين سنتي 465هـ و 469هـ في لاهور. (انظر: الموسوعة الصوفية. د. عبد المنعم الحنفي ط1 (القاهرة: دار الرشاد- 1412هـ) ص401.

207انظر: كشف المحجوب . علي بن عثمان الهجمويري. دراسة لا تعليق د. إسعاد عبد الهادي قنديل
مراجعة د. أمين عبد المجيد بدوي (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة و النشر -1980 ص 228

208هو أبو بكر محمد بن إسحاق الحنفي الكلابدي، من علماء الصوفية، من أشهر مؤلفاته "التعرف لمذهب أهل التصوف " توفي سنة 380 هـ.(أنظر: الموسوعة الصوفية ص 338).

208انظر التعرف لمذهب أهل التصوف. أبي بكر محمد الكلابدي ط 3 (المكتبة الأزهرية للتراث-1412هـ)

209انظر: كشف المحجوب ص 227، 230.

210هو عبد الكريم بن هوزان القشري الصوفي، صاحب كتاب "الرسالة القشيرية" ولد سنة 375هـ من شيوخ الصوفية، مات سنة 465هـ (انظر: سير أعلام النبلاء 18\227).

211انظر: تلبيس إبليس ص201، وانظر ترمة ابن الجوزي ص46 هامش (3).

212هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد الخضر بن محمد علي بن عبد الله ابن تميمة الحراني ثم الدمشقي الحنبلي، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس، محدث، حافظ، مفسر، فقيه، مجتهد، مشارك في شتى أنواع العلوم، ولد سنة 661هـ وتوفي سنة 728هـ، من مصنفاته المشهورة "الفتاوى" و"السنة النبوية في نقض كلام الشريعة والقدرية" وغيرها كثير جدا. (انظر: معجم المؤلفين 1\163 .

213هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي الفيلسوف، المؤرخ العالم الاجتماعي، البحاثة، ولد سنة 732هـ بتونس، صاحب المقدمة المشهورة "مقدمة ابن خلدون" توفي سنة 808هـ بالقاهرة (انظر: الأعلام 3\330، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الإنجليزية، فؤاد كامل، وطلال العشري وعبد الرشيد الصادق، وراجعها د. زكي نجيب مجمود (بيروت: دار القلم) ص14.

214انظر: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، ط6 (بيروت: دار القلم-1406هـ) ص467.

يستهدف ارتباطه بعصر النبوة، والزعم في نفس الوقت بأن صلى الله عليه وسلم قد أقر منهجهم في الافتقار والاعتزال والتجرد والتواكل[215].

و أن الثابت تاريخيا أن أهل الصفة "هم المهاجرون الذين اختصوا بالسكنى في صفة مسجد رسول الله، مثل أبي هريرة الدوسي، وأبي ذر الغفاري وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي–رضي الله عنهم–"[216].

ب_ بالنسبة إلى الصفاء[217]:

قال الكلاباذي: قالت طائفة إنما سميت الصوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها[218].

وقال بشر بن الحارث[219]: "الصوفي من صفا قلبه لله[220]."

وقال أبو نعيم[221]: "اشتقاقه عند أهل الإشارات والمنبئين عنه بالعبادات من الصفاء والوفاء.

وقد ردها أيضا ابن خلدون لأن قياس اللغة يأباه[222].

جـ_النسبة إلى الصف[223]:

قيل: "إنما سموا صوفية، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز بارتفاع همهم إليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه"[224].

وقد اعترض القشيري على هذه التسمية بقوله: "..ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف"[225].

215انظر: دراسات في الفرق. د. صابر طعيمة ط2(الرياض: مكتبة المعارف-1404هـ) ص99.

216شفاء السائل لتهذيب المسائل. عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن خلدون تعليق وتقديم. محمد بن تاويت الطبخي ص16،17.

217الصفاء: نقيض الكدر، وهو صفاء القلوب، وانشراح الصدور، ومصافاة المودة والإخاء. (انظر: المعجم الصافي في اللغة العربية. صالح أبي الصالح وأمينة الشيخ سليمان الأحمد ط1(1409هـ)ص339 حرف الصاد.

218التعرف لمذهب أهل التصوف ص26.

219هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء الله بن هلال المروزي، الزاهد الجليل توفي سنة227هـ.(انظر: تقريب التهذيب. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تقديم محمد عوامه. ط4(سوريا: دار الرشيد-1412هـ) ص122.

220التعرف لمذهب أهل التصوف ص26.

221هو أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، صاحب الحلية، ولد سنة 336هـ وتوفي بأصفهان سنة430هـ. (انظر: ترجمته في الطبقات الكبرى. عبد الوهاب بن أحمد المعروف بالشعراني ط1(بيرت: دار الجيل-1408هـ)65/1.

222انظر: مقدمة ابن خلدون ص467.

223يقصد الصوفية بهذه النسبة أنهم في الصف الأول المقدم بين يدي الله تعالى في عباداتهم، وسلوكهم، وأحوالهم.

224التعرف لمذهب أهل التصوف ص26-27.

225الرسالة القشيرية ص385.

د_النسبة إلى صوفه[226]:

قال صاحب اللسان: "الصوفة كل من ولي شيئا من عمل البيت الحرام وهم الصوفانة"[227]. وبمثل ذلك قال ابن الجوزي[228]:".. ان اول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفة.

فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفية"[229].

هـ –وممن نسب الصوفية الى لباس الصوف[230] السراج الطوسي،والكلاباذي والهوجري.

ويؤيد هذه النسبة السهروردي بقوله: كان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا".

ثم يذكر أن هذا الإختيار ملائم من حيث الاشتقاق اللغوي، لأنه يقال "تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص".

وممن قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "والنسبة في "الصوفة" إلى الصوف لأنه غالب لباس الزهاد"[231].

كما اختار هذا القول ابن خلدون بقوله: قلت: والأظهر إن قيل بالإشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس "الصوف"[232].

226صوفة ابن بشر: هو صوفة أبو يحي من مضر، وهو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس من مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم، كانوا يجاورون مكة من الزمن القديم وهم قبيلة من العرب.(انظر: حلية الاولياء وطبقات الأصفياء 17/1، ولسان العرب لابن منظور 200/9مادة "صوف").

227لسان العرب 200/9.

228ابن الجوزي: هو عبد الرحمن بن علي بن محمد، الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، الإمام الواعظ المفسر، ولد ببغداد سنة 508هـ، نسبته إلى مشرعة الجوز، وهي محلة ببغداد، كان رأسا في الوعظ، إماما في التفسير، علامة في السير والتاريخ، له آراء شاذة في الصفات، يميل إلى رأي المعطلة، له مؤلفات كثيرة، منها: زاد المسير في علم التفسير، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، وتلبيس إبليس وغيرها كثير جدا، توفي في بغداد سنة 597هـ.

انظر: الذيل علىطبقات الحنابلة لابن رجب، تخريج أحاديث أبو حازم أسامة بن حسن، وأبو الزهراء علي بهجت ط1(بيروت: "دار الكتب التعليمية-1407هـ) "/336، وشذرات الذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ط2(بيروت: دار المسيرة، 1399هـ)329/4،وسير أعلام النبلاء 374/21،وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لأبي العباس أحمد خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1969م)130/3، والبداية والنهاية 28/13، ومرآة الجنان تأليف عبد الله اليافعي ط2(القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1423هـ) 489/3، والأعلام خير الدين الزركلي ط10 (بيروت: دار العلم للملايين، 1992م) 316/3.وعن غزارة علمه-رحمهالله- انظر: قراءة في مؤلفات ابن الجوزي، د: ناجية عبد الله إبراهيم (بغداد: منشورات وتوزيع العالمية-1987م)، ومؤلفات ابن الجوزي، عبد الحميد العلوجي ط1 (الكويت، مركز المخطوطات-1412هـ).

229تلبيس إبليس، ص199.

230هو عبد الله بن علي الطوسي، أبو نصر السراج: زاهد، كان شيخ الصوفية، له كتاب "اللمع في التصوف"، توفي سنة 378هـ (انظر: الأعلام104/4).

231مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 369/10.

232مقدمة ابن خلدون ص 467.

و_ النسبة إلى سوفيا اليونانية[233]:

ممن مال إلى ذلك البيروني[234] بقوله: أنهم منسوبون إلى "السوفية" الحكماء القائلون بالوحدة، وأن الصوفية أول من أدخل ذلك في الإسلام فسموا باسمهم"[235].

كما حاول جرجي زيدان[236] أن يربط بين الكلمة العربية "الصوفية" والكلمة اليونانية "سوفيا فيقول: "وعندنا أنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هي صوفيا" ومعناها الحكمة... فيكون الصوفية قد لقبوا بذلك نسبة إلى الحكمة، لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه أو يكتبونه بحثا فلسفيا ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان ودخول لفظة الفلسفة منها"[237].

لكن هذه المحاولة استبعدها البعض لأسباب لغوية ذلك أن حرف (س) اليونانية نقلت إلى العربية مكانها (س) لا (ص) كما أنه لا يوجد في اللغة الآرامية كلمة تعد واسطة لانتقال سوفيا إلى صوفي[238].

ومن خلال ما سبق فالراجع هو النسبة إلى الصوف لأسباب منها:

1. لأن في ذلك علامة على الزهد، لما فيه من الخشونة المعروفة.
2. موافقته للغة.
3. ولأن هذا القول قد رجحه شيخ الإسلام ابن تميمية–رحمهالله–.

ثانيا:واذا بحثنا عن كلمة الصوفية ، فإنه لا يوجد لها أثر في الكتاب والسنة، ولم يتكلم بها أحد من الصحابة أو التابعين.

ولكن وردت كلمة "أصوافها" في القرآن الكريم في قوله تعالى: "ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين"[239]

233سوفيا: معناها باليونلنية: الحكمة.

234هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، ولد سنة 362هـ فيلسوف رياضي، مؤرخ من أهل خوارزم، توفي سنة 440هـ (انظر ترجمته في الأعلام 205/6).

235تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية- 1377هـ) ص25،24.

236هو جرجي بن حبيب زيدان، ولد في بيروت سنة 1278هـ وتوفي في القاهرة سنة 1332هـ وهو كاتب نصراني. (انظر ترجمته في الأعلام 117/2).

237تاريخ آداب اللغة العربية ط1(بيروت: دار الفكر-1416هـ) 364/2

238انظر: تاريخ التصوف في الإسلام د. قاسم غني، ترجمة: صادق نشأت، مراجعة د. أحمد ناجي القيسي ود. محمد مصطفى حلمي (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية-1970م)ص67-68 بدون رقم الطبعة.

239سورة النحل آية80.

وهذه الكلمة بهذا الإشتقاق بعيدة عن موضوع بحثنا هذا.

كما أنها وردت في السنة النبوية باشتقاقين هما "صوف"، و"صوفه".

ولهذا ذكر بعض الصوفية وغيرهم أن الكلمة مدار البحث مشتقة منها.

ثالثا: تعريف التصوف اصطلاحا:

تعددت الأقوال حول التعريف الاصطلاحي للتصوف عند الصوفية وغيرهم واختلاف الصوفية حول هذا المعني، لا يقل عن اختلافهم الكبير حول أصله في اللغة، إذا احتشدت به كتبهم حتى تجاوز تعريفه المائة عند بعضهم[240] – حسب زعمه – ، وزادت تعار يفه عن الألف عند البعض[241] بل قال بعضهم[242] أنها زهاء الألفين.

وهنا عدّة أقوال تناولت هذا التعريف:

القول الأول: عند الصوفية: يقول معروف الكرخي[243]: "التصوف الاخد بالحقائق و اليأس ما في أيدي الخلائق".

ويقول الجنيد[244] وقد سئل عن التصوف: "أن تكون مع الله بلا علاقة".

ويقول أيضا هو: "أن يمتلك الحق عنك ويحييك به".

وقد عرفه سمنون[245] بقوله: "التصوف هو أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء"[246].

240انظر:اللمع ص47.

241انظر: عوارف المعارف ص58.

242انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ص9.

243أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، ويقال معروف الفيرزان يلقب بالزاهد، معروف بالورع، توفي سنة200هـ وقبره ظاهر في بغداد. (انظر ترجمته في صفة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري. تخريج أحاديثه د. محمد رواس قلعجي. ط2 (بيروت: دار المعرفة-1399هـ) ص318/3، وطبقات الصوفية. أبي عبد الرحمن السلمي. ترتيب أحمد الشرباصي (مطابع الشعب-1380هـ) ص21.

244الجنيد بن محمد بن الجندي النهاوندي ثم البغدادي، توفي سنة267هـ (انظر ترجمته: سير أعلام النبلاء66/14).

245أبو الحسن سمنون بن حمزة، ويقال سمنون بن عبد الله بن بن الخواص، من كبار مشايخ العراق، توفي بعد الجنيد (انظر ترجمته: في طبقات الصوفية ص54).

246اللمع ص15.

وللتصوف تعاريف عند ذي النون[247] ، وأبو عمرو الدمشقي[248] ، والشبلي[249] . والحصري[250] والغزالي.

وقد عرفه البعض بأنه كله اضطراب.

ومن وجهة نظري فإن الإختلاف الملحوظ بين هذه التعاريف الصوفية مرده، أن الصوفية لما كانوا أصحاب وجد وذوق، تكلم به وعرفه كل واحد منهم بما يروق له. وكما هو واضح أيضا فإن هذه التعريفات ، وتطغى عليها الرمزية والإشارات العامة غير المفهومة.

والملاحظ أن تعريف التصوف عند الصوفية يختلف من عصر إلى آخر، نتيجة لعدم استطاعة القوم، تعريفه تعريفا جامعا مانعا.

القول الثاني: تعريف التصوف عند غير الصوفية: وكما لاحظنا فيما سبق، الاختلاف في تعريف التصوف عند رموز الصوفية، فأن هذا الاختلاف في مدلول التصوف نجده أيضا عند بعض علماء السلف وبعض المتكلمين والفلاسفة والباحثين، ولايسعنا هنا إلا أن نعرض بعضا من أقوال هؤلاء:

1. عند ابن الجوزي: التصوف هو: "طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاب

247أبو الفيض ذو النون المصري. اسمه ثوبان بن ابراهيم، توفي سنة 245هـ (انظر ترجمته: في طبقات الصوفية ص10، والطبقات الكبرى. 70/1.

248أبو عمرو الدمشقي، من مشايخ الشام الصوفية، توفي سنة 320هـ (انظر طبقات الصوفية ص65).

249أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، ويقال اسمه جعفر بن يونس، خراساني الأصل، بغدادي المولد والمنشأ، توفي سنة 334هـ ودفن في مقبرة الحيرزان .

250أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري، بصري الأصل، سكن بغداد شيخ الطرق ولسانها، توفي في بغداد سنة371هـ. (انظر: طبقات الصوفية ص120).

1. الآخرة من العوام لما يظهرونه من الزهد. ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرونه عندهم من الراحة واللعب"[251].
2. عند ابن خلدون: يقول: "وأصلها –أي طريقة التصوف– العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق للعبادة. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[252].
3. عند ابن سينا[253]: في معرض تفريقه بين الزاهد والعابد والصوفي يقول ابن سيناء أن الصوفي الذي يطلق يطلق عليه العارف– هوالمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق بأسره.
4. عند عمر فروخ: يقول: "الصوفية حركة بدأت زهدا وورعا، ثم تطورت فأصبحت نظاما شديدا في العبادة، ثم استقرت اتجاها نفسيا وعقليا بعيدا عن مجراها الأول، وعن الإسلام في كثير من أوجهها المتطرفة"[254].

251تلبيس إبليس ص19.

252مقدمة ابن خلدون ص467.

253هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سيناء، شرف الملك: الفيلسوف، الرئيس، صاحب التصانيف في الطب، والمنطق، والطبيعيات، والإلهيات، أصله من بلخ، إحدى قرى بخارى نشأ وتعلم فيها، مولده سنة370هـ، توفي سنة428هـ بهمذان (انظر: ترجمته في الأعلام 241/2، والموسوعة الصوفية ص223، والموسوعة الفلسفية المختصرة ص16).

254تاريخ الفكر العربي د. عمر فروخ (بيروت: دار العلم للملايين -1392هـ) ص470.

5. ولابن تيميمة رأي حول ذلك فهو يقول: "أن الناس تنازعوا في طريقتهم –أي الصوفية– فطائفة ذمت التصوف والصوفية وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم

أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، ويرى ابن تيمية رحمه الله أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، ومنهم من يذنب فيتوب وقد لايتوب، ويرى ابن تيمية أن من المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة.

ويتضح من هذا النص أن ابن تيمية رحمه الله لم يتجن على الصوفية وإنما حكم بأنهم مجتهدون في طاعة الله والمجتهد عرضة للخطأ، ، كما أنه رحمه الله أوضح صراحة أنه قد انتسب إلى هؤلاء طوائف من أهل البدع والخرافات والزندقة .

الفصل الأول

الأسس المعرفية بين الجهاد والتصوف

1 -الجهاد أساس التغلب

2 -التصوف أساس الوحي

3 -الشعر أساس الابداع

/ الجهاد أساس التغلب:

لا قيمة للحياة إن لم تكن في ظلال الأمن والعزة ، والحرية والعدالة [255]، وسائر المعاني السامية والحقوق الإنسانية التي تصبو الأمة إلى تحقيقها .

وقد يتساءل البعض ويقول : إذا كان الإسلام هو دين الرحمة والسلام ، والدين الذي كرم الإنسان وحافظ على حقه في الحياة فلماذا الجهاد الذي تراق فيه الدماء وتزهق فيه الأرواح ؟ والجواب : إن الإسلام حقاً دين الحياة ، الحياة الطيبة الكريمة الهادئة والهانئة والآمنة المطمئنة ، ولكن هناك أعداء للحياة وأعداء للحرية ، إن تركوا على حالهم فسوف يسلبون الناس أبسط حقوقهم .

يقول الأمير عبد القادر الجزائري

وَنَحْلُمُ، إنْ جَنَى السُّفَهَاءُ يَوْمًا ********* وَمَنْ قَبْلِ السُّؤَالِ ، لَنَا نَوَال[256]

لذلك فإن الجهاد موجه إلى هذه الطائفة التي تحارب الناسّ في حرياتهم وتلجم ألسنتهم وتحجر على عقولهم ، وحين لا تجدي الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة مع هؤلاء فإن آخر العلاج الكى وإن هذه القلوب القاسية والعقول المتحجرة والنفوس الأمارة لا يصلحها إلا السيف .

وَالنَّاَس إِنْ ظَلَمُوا الْبُرهَان وَاعْتَسَفُوا *** فَالحَرْبُ أَجْدَى عَلى الدُّنْيا مِنَ السِلمِ

وَالشَّرُ إِنْ تُلْقِهِ بِالْخَيْرِ ضِقْتَ بِهِ ذِرْعاً *** وَإِنْ تُلْقِهِ بِالشَّرِ يَنْحَسِـم

لقد شرع الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، لم يشرع لأهداف توسعية أو لمطامع سياسية ، وإنما شرع لأسمى غاية وأسمى مقصد ، شرع لتكون كلمة الله هي العليا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحم الله : " وإن كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده أن يكون الدين كله لله ،وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن منع من هذا قوتل

---

[255] ـ يقول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم" :**العدل جنة واقية، وجنة باقية**[2]"

[256] ديوان اللأمير عبد القادر الجزائري د/ ممدوح حقي ص35 ط دار اليقظة للتأليف والنشر –بيروت-

باتفاق ، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمنى ونحوهم فلا يقتل عند الجمهور إلا أن يقاتل بقوله أو بفعله ، وإن كان بعضهم يرى مقاتلة الجميع بمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم مالا للمسلمين والأول هو الصواب لأن القتال لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال تعالى (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ولا تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) [257]

يقول الأمير عبد القادر مبرزا أخلاق القائد المسلم .

وَأَغشى مضِيقَ الْمَوْتِ لَا مُتَهَيِّبًا ***** وَأَحْمِي نِسَاءَ الْحَيِّ في يوم تِهوالِ

يَثِقْنَ النِسَا بِي حَيْثُمَا كُنْتُ حَاضِرًا *****وَلَا تُثِقْنَ فِي زَوْجِهَا ذَات خُلْخَالِ[258]

وقال أحد الصوفية : " فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم استجاب له ولخلفائه من بعده أكثر الأديان طوعا واختيارا، ولم يكره أحدا قط على الدين ، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله.

وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالا لأمر ربه سبحانه حيث يقول: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدا على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد، قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء، وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين وإما أن يعطوا الجزية.

---

[257]--) (190 سورة البقرة

[258] ديوان الأمير عبد القادر ص41

ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبين له أنه لم يكره أحدا على دينه قط، وإنه إنما قاتل من قاتله. وأما من هادنه

فلم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) [259] ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه

ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم، فمن على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم، وكذلك لما هادن قريشا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدءوا هم بقتاله، ونقضوا عهده.

فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد، ويوم الخندق، ويوم بدر أيضا، هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

و(المقصود) أنه صلى الله عليه وسلم لم يكره أحدا على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختيارا وطوعا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى، وأنه رسول الله حقا. 260

أن الجهاد ضرورة لبقاء الأمة المسلمة آمنة مطمئنة عزيزة قوية ، مرهوبة الجانب بعيدة عن أطماع الطامعين وأحقاد الحاقدين من الكافرين والمنافقين .وهدا ما تمسك به الشعب الجزائري و الحقيقة الناصعة في نفسية هذا الشعب الكريم، وهو أن أسلافنا لم يرضوا يوما بالرضوخ لأية قوة غازية مهما كانت، وأن روح النضال والمقاومة كانت دائما متقدة في نفوسهم بحيث لم يضعوا السلاح أبدا منذ بداية الغزو الإسباني سنة 1492 إلى قضاء

---

[259]-- التوبة7 (يعني أننا يجب أن نكون مع الآخر بقدر مايكون هو معنا في الصراط المستقيم من ضرورة الوفاء بالعهد معه)

[260] -6 هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم 36 ، 37

الشعب الجزائري على الاستعمار الفرنسي عام 261.1962 وقد كان الصوفية من الأوائل جاء في رحلة (بيري رايس) أن الشيخ محمد تواتي كان يحمي مدينة بجاية من الأسبان وأن زاويته

كانت ملجأ للمجاهدين وغزاة البحر. أنه حين توفي الشيخ سقطت المدينة في أيد العدو. وفر منها الأمير الحفصي262.

كما كان للزوايا دور هام في الدفاع عن الآمة منها :

الزاوية الحملاوية ودورها الجهادي في ثورة التحرير263:

كانت الزاوية الحملاوية في مقدمة المؤسسات التعليمية التي لبدت داعي الجهاد. فقد أمر الشيخ عمر طلبة الزاوية بالالتحاق بالثورة، وهكذا في سنة (1955م) التحق الطلبة زرافات ووحدان بإخوانهم المجاهدين في ثورة التحرير المباركة وتحولت الزاية من بعدهم إلى مركز يؤوي جنود الثورة ويزودهم بما يحتاجون إليه من غذاء وألبسة وأدوية وسلاح.

وليس هذا مجرد ادعاء ولكنها الحقيقة التي يؤكدها واحد من المجاهدين المعروفين، وهو الشيخ الأخ المجاهد الأستاذ عمار النجار من ضباط الولاية الثانية، ونائب بالمجلس الوطني الشعبي، والكاتب العام لجمعية الطلبة الجزائريين بتونس سابقا في مقال له نشر في جريدة النصر (89/12/12) حيث يقول عند حديثه عن المؤلف الطريقتين من الثورة التحريرية:

"لقد كانت زواياهم في مختلف جهات الوطن وهذا لا يمكن إنكاره موئلا وملجأ لوحدات جيش التحرير، وأذكر هنا على سبيل المثال زاوية بلحملاوي بوادي

261 -كتاب /فصول النقد الأدبي الحديث الجزائري/ د.محمد مصايف ص138.

262ص466 من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي/ أبو القاسم سعد الله.

263 صلاح مؤيد العقبي "الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر" دار البصائر الطبعة الثانية 2009.

سقان بولاية ميلة. لقد كان يلجأ إليها جنودا بالولاية الثانية وأن رئيسها الشيخ عمر رحمه الله عليه قد فرضت عليه الإقامة الجبرية ونقل إلى مدينة قسنطينة.

كما كانت الزاوية الكتانية ساحة عملية يؤمها الطلبة التابعون لحزب الشعب، وكان من بين هؤلاء الطلبة الأخ العقيد علي كافي أحد رؤساء ولايتنا الثانية".

والحديث عن الزاوية الحملاوية يجرنا طبعا إلى الحديث عمن درس بها. فمن الطلبة الذين حفظوا القرآن أو جزءا منه وتلقوا بها دراستهم الأولى نذكر: عبد المجيد الشافعي، والعربي سعدوني، وتركي رابح، وسليمان بشنون، ومحمد بوخروبة المعروف بـ هواري بومدين الرئيس الجزائري الراحل. ومن الشيوخ الذين علموا بها نذكر: العلامة الجليل والفلكي الشهير الشيخ المولود الحافظي الأزهر، والعلامة عبد الحفيظ بن الهاشمي، والعلامة الشيخ عاشور الخنقي والشيخ السعيد اليعلاوي، والشيخ محمد بلحكيمي. ومن علماء علماء تونس نذكر الشيخين: محمد قريبع، والبشير صفية.رحم الله من مات منهم.

ولا يفوتني أن أشير إلى بعض أفراد الأسرة الحملاوية الذين كان لهم دور مشكور في المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي.

فمن هؤلاء أذكر الشيخ محمد الشريف بن الحملاوي الذي كان يحتل منصب قائد عامر الغرابة[264] في أواخر العهد العثماني، والذي استشهد مع جماعة من المجاهدين في المعارك الأولى التي سبقت الاستيلاء على مدينة قسنطينة سنة ألف

وتسع مئة و إثنان وثلاثون ميلادي وفي تلك المعارك استشهد الحاج رجم الشيخ الحركاتي وعبد الله الأحرش.

ومنهم الآغا أحمد ابن الحاج محمد بن الحملاوي الذين كان مستشارا لأحمد باي في ولاية الثانية سنة ألف و ثمان مئة ألف وإثنان وعشرون ميلادي وكان من القادة المقربين إليه ومن رجال الحرب المعروفين في إدارته، وقد ولاه منصب آغاه الدايرة كما عينه سنة ألف

[264] وتحته (5) قنابل.

وتسع مئة وإثنان وثلاثون ميلادي على رأس الجيش في الهجوم على عنابة، وكان أحمد باي في كل تنقلاته، وقد تحدث عنه في مذكراته وعدة من بين القادة الذين رافقوه إلى الجزائر سنة ألف وثمان مئة وثلاثون ميلادي عند زيارته للباشا كما جرت العادة بذلك، وكان الرجل محل ثقته وكان من المدافعين عن مدينة قسنطينة في الحملتين. وقد سبق له أن احتل منصب قائد الزمالة في عهد إبراهيم باي الكريتلي (1811-1824م). وفي عهد محمد مناني باي، الذي ظهرت فيه الفتن، وعمت الفوضى تم إيقافه من طريف الباي المذكور، وعند تولي الحاج محمد باي على بيليك قسنطينة وإبرام العقد بينه وبين أعيان البلدة المذكورة نجد اسم أحمد بلحملاوي من بين الأسماء الواردة في نص العقد.

وبعد احتلال مدينة قسنطينة قام الحاكم الفرنسي –نيفريه– بتعيينه خليفة على منطقة فرجيوة قصد كسبه إلى صفه كما فعل مع غيره من أعيان البلد. ولكن الوالي العام الماراشيل فالييه لم يوافق على هذا التعيين وأنحى باللائمةعلى نيفيريه

وحذرهمن خطورة ابن الحملاوي وسوء نواياه المشبوهة نحو الفرنسيين، وأرسل إليه نسخة من التقرير الذي يثبت إدانته والذي جمع معلوماته من أعوانه بالجزائر، ومن بين تلك المعلومات أن ابن الحملاوي قد بقي على اتصال بالباي أحمد بعد مغادرته قسنطينة والتحاقه بالأوراس.

كما أنه كان على اتصال بالأمير عبد القادر بواسطة جمعية سرية كانت تعمل بمدينة قسنطينة لدعم المقاومة الوطنية ومدها بكل ما تحتاج إليه من أموال ومعلومات عن تحركات الجيش الفرنسي. وكان من أعضاء هذه الجمعية: عبد القادر بن وطاف مسؤول عن المالية، والمفتيان: المالكي والحنفي أحمد بن المبارك، ومحمد بن فتح الله الذي عزلته السلطات الفرنسية في عهد تيفريه بسبب انتمائه لهذه الجمعية. وقد بقي الآغا أحمد بن الحملاوي على اتصال بالأمير عبد القادر بالرغم من تعيينه خليفة على فرجيوة سنة

(1837م) من جهة، وبالرغم محاولات أحمد باي المتكررة بواسطة المراسلات لصده عن العمل مع الأمير.

وفي الحملة الكبرى التي قام بها بيجو ضد الذين حاربوا فرنسا، وحملوا في وجهها السلاح والتي وقعت بين سنتي (1841-1843م) والتي نفي فيها إلى جزيرة سانت مارغريت ما يزيد عن الثمانين شخصية، وكان أكثر المنفيين إليها من قسنطينة وعنابة ومعسكر ومستغانم، ثم تلتها بعد ذلك حملات أخرى مست مناطق الأوراس والقبائل، وقد كانت التهم الموجهة إلى تلك الشخصيات تنحصر

في المشاركة في المقاومة الوطنية ضد الغزو الفرنسي، وحمل السلاح في وجه فرنسا، والعمل السري مع الأمير عبد القادر.

ومما قيل في مدح الولي الصالح الشيخ علي بن الحملاوي والأستاذ بالزاوية الحملاوية نورد هذه المقطوعات لشيوخ من تونس والجزائر:

نَسِيمُ الصّبَا بِاللهِ بَلغْ تَحِيَتِي إلى وَلَد الحِمْلَاوِي شَيْخِي وَقُدْوَتِي

عَلى فَرِيدِ الْعَصْرِ مَصَاحُ قَطْر وَلِيٌّ زَكِيٌّ قَد تحلَى بِسنةٍ

نَزِيهٌ عَظِيمُ النَّفْسِ قَدْ فَضْلُهُ تَقِيٌّ نَقِيُّ العَرْضِ شَيْخُ الطَرِيقَةِ

فَصِيحَ لِسَانٍ عَالِمٌ وَمَفْخَمٌ حَمِيدُ خِصَالٍ ذو حَيَاءٍ وَعِفَةٍ

حَلِيمٌ كَرِيمٌ خَيِّرٌمُتَوَاضِعٌ حَبَاهُ جَمِيلُ السِّتْرِ ثَوْبَ الْمُرُوءَةِ

فَلَا زَالَ يرْقَى لِلْمَعَالِي جَنَابُهُ عَزِيزُ مَقَامٍ عِنْدَ أَهْلِ البَصِيرَةِ

لَقَدْ حَبَّهُ الْمَنَانُ جَلَّ جَلَالُهُ وَأَوْلَاهُ أَسْرَارًا وَعِلْمُ الشَّرِيعَةِ

فَيَا رَبّ أَبْلِغْهُ المُنَى وَزِيَادَةً وَأَعْلِ مَقَامَهُ لِأَرْفَعِ رُتْبَةٍ

فَيَا أَيُّهَا الْمَشْهُورُ بِالْعِلْمِ وَالتُّقَى وَالصَّفْحِ عَنْ الإِخْوَانِ بَعْدَ الْجِنَايَةِ

فَهَذَا عَبْدٌ قَدْ أَتَاكُمْ بِعُذْرِهِ يُرِيدُ الرِضَى مِنْكُمْ وَانْجَحَ دَعْوَةٍ

أَلَا فَارْحَمُوهُ مِنْ دُعَاءِ جَنَابِكُمْ بِفَتْحٍ وَتَوْفِيقٍ وَأَحْسَنِ حَالَةٍ

عَلَيْكُمْ سَلَامٌ مِنْ مُرِيدِ يُعَزِكُمْ بِتُونس يَهْوِاكُمْ بِخَالِصِ نِيَةٍ
وَنَرْجُو دُعَاءَ الخَيْرِ مِنْكُمْ فَإِنِّي مُحِبٌ مِنْ الإِخْوَانِ أَهْل الْطَّرِيقَةِ

ويرى الصوفية الجزائريون المتشبعون بالثورة أن ترك الجهاد سبب للمذلة والهوان وضياع الدار وتسلط الكافرين وتحكمهم في رقاب المسلمين وتدخلهم في شئون حياتهم ، يقول تعالى في سورة التوبة { إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[265].

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لئن تركتم الجهاد وأخذتم بأذناب البقر وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مذلة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه "

[265]--سورة التوبة » الآية 39

2/ التصوف أساس الوحي:

إذا ما وجهنا النظر إلى حقيقة الصوفي على أساس قاعدة الغاية والوسيلة أمكن أن تنظر إلى التجربة الصوفية من حيث هي (إيثار)[266] التوجه للذات الإلهية والانخطاف بها وإليها، والتجرد عن (الأثرة) التي هي فحوى عبادة الناس.

فمتى ما تحققت هذه الرؤية، أدركنا هشاشة البحث في الجانب (المؤثر والمتأثر) في حضارات العالم ، فالفكر الصوفي طرح أفكاره ومنطلقاته من حيث هي البديل للتفكير في الظواهر الوجودية على أساس جوهري وليس على أساس عقلي نظري استدلالي، وما الطريق الصوفي إلا محطات يقطعها السالك ليصل إلى السعادة في الاتحاد أو الفناء، فالإنسان يمثل طوراً من أطوار الألوهية[267]، وعلى السالك أن يتجاوز كل ما يحول دون الارتقاء، بحسب الجهد والطاقة والعزيمة وبمقدار وجود هذه الصفات، تصنف مرتبة الإيمان، والتي انتهى (الغزالي) إلى جعلها ثلاث مراتب:

أولاها: إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض.

ثانيتها: إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال وهو قريب من إيمان العوام.

ثالثتها: إيمان العارفين وهو الشاهد بنور اليقين.

266- خِصْلَةُ الإيثارُ فِعْلٌ مِنْ صِفاتِ الأتقياءْ قادة أحد الصوفية
يُؤْثِرونَ الغَيْرَ فضْلاً ً إنَّهُمْ أَهْلُ السَّخاءْ
في كِتابِ اللهِ ذِكْرٌ خَصَّهُمْ رَبُّ السَّماءْ

267- قد حاول الصوفيون المسلمون الأوائل جهدهم إتباع طرق لم تخرج بمعظمها عن حظيرة الإسلام، بحيث أنهم استلهموا ملامح فكرهم ونسكهم ومجاهداتهم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فاستخلصوا مثلاً من قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ - آل عمران: 164). بأن التزكية بفقه الباطن هي تهذيب النفوس، وتحليها بالفضائل وتركها الرذائل. وهذه التزكية دعاها الصوفيون بالإحسان، واصطلحوا على تسميتها: طريق التصوف.

لهذا انقسم علم الشريعة لدى الصوفية إلى: (علم ظاهر الشرع)، وهو يدرس العبادات والمعاملات، ويقوم به أهل الفقه، وإلى: (علم أعمال الباطن)، أي أعمال القلوب، أو علم الحقائق وباطن الآيات الذي ينكشف للخواص من عباد الله الذين اختصوا بفضل التأويل. ولهذا تبنى الفكر الصوفي مفهوماً واحداً شاملاً لكل القواعد، وهو: بطلان الظواهر وقيام الحقيقة فيما وراءها

وهذا الإيمان فوق نطاق الحس، والعقل معاً، بناءً على ذلك انصراف الجدل إلى تقصي قيمة (المساهمة العقلية) في تجربة التصوف، اعتماداً على أن المكتسبات الحسية هي مصدر معرفة العوام، والاستدلالات العقلية هي مصدر معرفة أهل الكلام، أما الصوفية فينتهي (الغزالي) إلى القول بـ(الحدس الباطني) أداة لإدراك العلم اليقيني وبه تدرك الأوليات العقلية التي تجيء بنور يقذفه الله في الصدر[268]، ولا تتيسر بنظم دليل وترتيب كلام، على الرغم من إقرار الغزالي بمرجعية الحدس وتقييده بالكتاب والسنة ، لكن إذا لم يلغ حضور العقل في المعرفة الصوفية، بل إن المعرفة والتصوف طابعان قد يوجدان جنباً إلى جنب في نظام صوفي واحد، والذي يذهب إلى الفصل بين المعرفة والتصوف إنما يجعل من تجربة التصوف ممارسة إيهامية لا عقلانية مجردة، في حين أن فهم أبعاد قضية التصوف يستلزم —من جملة ما يستلزم– فهماً جلياً وموضوعياً متكاملاً لموضوعة (الدين) أولاً ومواقف المتدينين بين حقيقة الدين، ونسبيه الممارسة الإنسانية تجاه حقيقة الدين، فضلاً عن الوقوف على الثواب والعقاب، ومن ثم إدراك أبعاد (حدود الظاهر)،

و(الباطن) حيث أن الأخير يستلزم توفر الباحث على تصور واضح لخصوصية تأويل (الباطن) بعد حسن ظن، وتجرد من الأهواء المذهبية أو الميول الطائفية، ومهما بلغ عمق هذا التصور، لا يمكن أن يستغني به عن (التجربة)، فمن لم يجرب ليست له القدرة على الفهم والتقدير فضلاً عن استعصاء التجربة على الوصف، والتعبير والإحاطة بها لغة وإيضاحاً تعبيرياً؛ فالصوفي يقول: (من لم يعرف إشارتنا، لم ترشده عباراتنا) ، وذا أبو

[268] --عتقد الصوفية بأن جمهور الناس مساكين، (فقد أخذوا علمهم من ميت عن ميت، أما الصوفي فقد أخذ علمه من الأصل الذي لا يزول ولا يحول وهو الحي الذي لا يموت). فالتصوف كما يبدو ليس نظرية علمية بل تجربة عملية لها أبعادها العرفانية، ترى في العبادة الحقة طريقاً ثالثة ترقى على نمطي العبادة السائدين: عبادة الرغبة وهي عبادة أهل الطمع، وعبادة الرهبة وهي عبادة العبيد، أما عبادة الصوفي فهي عبادة الشكر والمحبة وحسن التقدير. فالصوفي حين يناجي ربه بقوله: (إلهي الكل يطلب منك، وأنا أطلبك)، فهو يخالف جمهور العابدين في تقلبهم بين طلب الثواب أو رهبة العقاب، وحتى الجنة فهي تغدو، كما يقول البسطامي: (حجاباً وأهلها محجوبون عن رؤية الحق.)

يزيد البسطامي[269] في إحدى شطحاته يقول: (تراني عيون الخلق أني مثلهم، ولو رأوني كيف صفتي في الغيب، لماتوا دهشاً) ، فالصوفي، هنا، عماده خصوصية التجربة، والمقدار الذي ذاقه من المعرفة، ومستوى (وقفته) ودرجتها، فهو يذكر (أفكاراً عن تجربته في التصوف بعد أن تنتهي، ويبدأ باستعادة أبعاد هذه التجربة حين يعود إلى وعيه العادي المقيد بالحس والعقل، ولكن في التجربة نفسها لا يوجد أي فكر)،ولعلني أجد في قضية التجربة الصوفية وعلاقاتها بالفكر، بعض التحفظ، بخاصة إذا كان الكلام عن التصوف الإسلامي، دين المعرفة، والكتاب الكريم هو معجزته الخالدة التي ضمت علم الدين والدنيا، هذا من جهة —ومن جهة أخرى، الصوفي نفسه في رحلته التجريبية الاستكشافية في أعماق الذات —أولاً– ثم الارتقاء للحق، وسواء أكان هذا الارتقاء تجلياً أم إشراقاً، أم اتحاداً أم فناءاً، لم يك ليحدث لولا وقوف الصوفي —بوعي تثقيفي مدقق– على أفكار الدين ومفاهيمه، من هنا لا يجوز أن

يكون الطفل الصغير صوفياً..، فالتصوف علم قائم على تجربة، نعم لها من الخصوصية والتفرد ما لا شك عند أحد فيها.

من المعروف أن الفكر الصوفي يسعى، في كل مكان وزمان وجد فيه، لتلبية حاجة سامية من حاجات النفس البشرية، ألا وهي النزوع نحو السعادة والكمال، وإن اختلف التعبير عن هذه الفكرة وعن طرق بلوغها، ولكنها في كل الحالات اتخذت الدين، والذات الإلهية

---

269 4- هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البِسطامِي يلقّب ب"سلطان العارفين" وهو واحد من أعلام التصوف في القرن الثالث للهجرة.

ولد سنة 188 هـ في "بسطام" في بلاد خراسان من أصل مجوسي، تأثّر بإسماعيل السدي (من الأيمّة المفسرين) وجعفر الصادق (الإمام السادس لدى الشيعة الإمامية) و روى عنهم.

توفي سنة 261 هـ. لم يثبت محل دفنه على وجه التحديد بل اشتهرت له أضرحة كثيرة في أماكن متفرقة،

بالتحديد، منطلقاً لها، لأن الإنسان، بقواه الفكرية والجسدية المحدودة، غير مؤهل ليكون هو غاية الحياة لأن مصيره الفناء، ولأن الفكر الصوفي يرى أن هذا الإنسان، على ضعفه، يمثل طوراً من أطوار الإلوهية، فعلى السالك أن يتجاوز كل ما يحول دون ارتقائه في تلك الأطوار، وإلا فمصيره الفناء المطلق. لذلك قالوا: أن طريق الصوفي ما هو إلا محطات يقطعها السالك ليصل إلى السعادة في الاتحاد بالله أن التصوف، بوصفه تجربة إنسانية تنشد تحرير النفس البشرية من أسر المادة والشهوات والانطلاق بها نحو عوالم الغيب والسمو، هو فكر وسلوك منتشر بين شعوب الأرض على اختلاف أصولها وعقائدها. فلقد بدأ التصوف جوهراً فكرياً يمثل مرحلة راقية من مراحل تطور الفكر الديني والأخلاقي للبشر، وتمكن من تمثيل كفاءة القوى العقلية في إثبات قدرتها على الإدراك إلى جانب الالتزام بالنص الديني، وانتهى به الأمر مدارس فلسفية حقيقية ذات تجارب راقية، شكلت حركة إيقاظ تأويلية للفكر الإنساني في مواجهة جهله بالكون وخفايا النفس وحقيقة الخالق وطريق الوصول إليه، فاختط الفكر الصوفي بذلك طريق جديدة للمعرفة والإدراك تجاوز بها حدود عقل الإنسان ومقاييسه، فكانت لهم رموز خاصة ومصطلحات تعارفوا عليها وأسموها الإشارات.

.

ولذا فان التجربة الصوفية لا يمكن فصل الفكر فيها عنها للملمحين الآتيين:

أولاً: تتمثل حقيقة التصوف في جانب نفسي تركيبي يقع في أعماق النفس البشرية، ربما يصح أن تطلق عليه (استعداداً فطرياً أو غريزياً) يتلخص بأنه الإخلاص لفكرة وليس شرطاً أن تكون دينية وما هو عند الناس وسيلة وغاية، يصبح عنده غاية، فقط والممارسات والأفعال تؤدي لذاتها. هذا الاستعداد الفطري يحتاج أن يوقظ وقد تتم اليقظة عن طريق صدمة ما. من هنا صح أن يوصف أي مخلص لفكرة ما، بأنه متصوف

في محرابها؛ قد يكون شاعراً، عالماً، موظفاً.. فالإخلاص قيمة وجدانية تفيد ارتباط أشياء الوجود من دون دوافع مادية.

ثانياً: دلالة (الفكر) يجب أن لا تنصرف إلى معنى علمي محدد. فالإسلام أرسى دعائمه على العلم والتفكير[270] والتدبر لهذا شغل العرب بالقرآن وأمسى هو علمهم الذي ليس لديهم أصح منه، كما كان الشعر كذلك في الجاهلية، فيبدأ التصوف بعد أن يصل العالِم أو الإنسان العادي إلى مرحلة (يخلص) فيها نفسه لله، ولا يتم ذلك إلا بعد أن تمت له صورة عقلية لصفات الخالق عز وجل من خلال الكتاب الكريم والأحاديث الشريفة ثم التدبر والتفكير، ولولا ذلك لم يكن الغزالي (ت خمس مائة وخمسة هـ) رحمه الله، ينتهي إلى تلك الحقيقة اليقينية بعد أن اعتزل

الناس واعتكف في بلاد الشام، فخلص إلى: (إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وإن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء لتغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ووتبديله بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

والقول بفكريّة التجربة الصوفية، لا يمنع التفرّد الذي يكتنف تجربة كل متصوف، حسب مذهبه وطريقته، من هنا تحددت اصطلاحية النعت، فالصوفي لغةً واصطلاحاً يعني (الشخص الذي تمتع وحده بالتجربة الصوفية، بصرف النظر عمّا إذا كان يملك القدرة على حسن الأداء في وصف هذه التجربة أولاً، فالتجربة شرط أساس لا يغني عنه امتلاك

[270]- من دعائم الفكر الإسلامي التواصل والانفتاح على كل الأديان والحضارات؛ حتى يسود التفاهم والسلام بين الشرق والغرب، القائم على الاحترام المتبادل والبعد عن النظرة الاستعلائية فجوهر الإسلام وعقلانيته عمادها فكره المعتدل، المبني على الانفتاح المفقود في الفكر الغربي الذي يعتقد أنّه المالك الوحيد للحضارة في العالم

أزمّة البلاغة، وروعة الوصف، وعمق التحليل،مثال دلك قول الأمير عبد القادر الجزائري في مقطوعة –أثناء غيبوبة صوفية – فجاءت تصور حالة الشاعر أثناء شطحاته الصوفية

أُرَدِدُ طَرِفِي فِي الْوُجُودِ فَلاَ أَرَى سِوَى مَنْ بِهِ كَانَت رُسُومًا وَأَثَارًا

وَأَسْأَلُهَا عَنْهُ فَكُلٌ أَجَابَنِي بِأَنّهُ مَا رَأَهُ يَوْمًا وَلَا أَدْرَى

فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا عَجِيبٌ فَإِنّنِي مَا أَبْصَرْتُهُ إِلَّا بِكُمْ مُتَظَاهِرًا

عَرَفْتُ مِنْكُمُ ثُمَّ زَادَ فِي عِرْفَاننَا بِأَنّنِي إِيَّاهُ . وَلَكِن مُنْكَرًا

ولهذا تعددت تعريفات التصوف، حتى أحصى منها أحد الباحثين أكثر من ألفي تعريف للتصوف([271]).

لعل الذي حار فيه، من جعلوا التجربة الصوفية في جانب، والفكر في جانب آخر،..[272] هو كامن في طريقة الوصول إلى الحقيقة وليس الحقيقة ذاتها التي قرر سابقاً أنها إنسانية في نزوعها ونشأتها، فالتصوف يرمي إلى أن الحقيقة تكمن في الجانب الغيبي والمجهول من الفقه والشرع وليس في ظاهره، لذا فالوسائل المتبعة في الوصول إلى هذا الغيبي والمجهول، والباطني هي، بالطبع، غير الوسائل المتبعة في الوصول إلى القضايا الشرعية الظاهرة والأخيرة طريقها النقل والعقل، أما وسائل وصول الصوفي، فهي: (القلب، الحدس، الإشراق، الذوق..) من هنا نشأ الرباط الوثيق بين التجربة والذات المجربة، ومن ثم النسبية في الرؤية والأحكام ودرجة الوصول، وهذا لا يعد تناقضاً بل اختلافاً مغايراً وهو تعدد في وسائل الوصول إلى هدف واحد.

---

[271]-لقد أشرنا الى دلك في تعريفنا لتصوف

[272]-- المعرفة في التجربة الصوفية، تقوم على العبادة، وإن تفسير العبادة يقوم على المعرفة، لذلك يقول السينيوي عن التعبد بأنه "عرفان واجب الوجود"، لكن ذو النون ربط ما بين المعرفة وبين العلم، معتبراً أن المعرفة "هي المعرفة بالله، والعلم هو العلم الأعلى الإلهي"

الفصل الثاني:

مثالية المعنى الجهادي

1/ تربية النفس على المثل العليا

– جهاد النفس في الصبر على الدعوة وبيان الحق

2/ ابتغاء اظهار الدين

أ– الإخلاص لله عز وجل:

ب– العفو والصفح وكظم الغيض

ج– الأمانة وحفظ العهد والوعد

1 تربية النفس على المثل: يرى ابن الفارض أن النفس الإنسانية تكسب عملها اللاول من التذكر لكل ما يستقر فيها من مشاعر وخيالات وصور، فالعلم ليس منبعه العقل يل النفس، وليس مصدره المعرفة العقلية بل الالهم النفسي ، وليس منهجه ترتيب المعلومات وفهمها بل تذكر المعلومات الإنسانية عن طريق الوحي والتذكر ، والنفس عالم كبير ، و التذكر النفسي عالم أوسع ، وبهذا يوضح ابن الفارض جانبا كبير من مما كتب حوله الصوفيون من دراسة للنفس الإنسانية ومن أدب التحليل النفسي الذي أبدع فيه الصوفيون .

ولهدا فالصوفية أقدر على تربية النفس .

وتربية النفس على الدعوة و المجاهدة مجالاتها متعددة، لكن الحديث في هذه المرتبة سيكون عن الدعوة والبيان اللذَيْن يسبقان جهاد السنان،ويمكن تسمية هذا النوع من الجهاد بجهاد البيان وتبليغ الناس الدين الحق، وتعليمهم توحيد الله عز وجل وحقيقة العبودية، ومعرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وكيف يعبدونه[273] بمعرفة الأحكام العينية كأركان الإسلام وما لا تقوم إلا به، كما أن مما لا يتم البلاغ والبيان إلا به بيان سبيل الكافرين والمجرمين، وبيان ما يناقض التوحيد والإسلام الحق، وتعرية أهله للناس· قال الشافعي :

[273]--وقال العلامة عبد الرحمن السعدي [273]
الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية والعملية وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين

ما شئتَ كان و إن لم تشأ و ما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد لما قد علمت ففي العلم يجري الفتى و المسن
على ذا مننتَ و هذا خذلتَ وذاك اعنتَ و ذا لم تعن
فمنهم شقيٌ و منهم سعيد و منهم قبيحٌ و منهم حسن[274]

ولقد ذكر الله سبحانه في صفات المجاهدين الذين عقدوا البيعة مع الله عز وجل في قوله: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...) 275الآية. ذكر من بين هذه الصفات أنهم: (الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) 276والجهاد في حقيقته فرع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يقول الشاعر محمد العيد أل خليفة

نحن الدعاة الى الحسنى فما أحدّ منآ بمجترح للشرّ مجترم
ألا فقل للذي بالحرب فاجأنا لاتلق بالحرب من يلقاك بالسلم
وقل لمن نالنا بالظلم منتقماً حذار من نائلٍ بالعدل منتقم(277)

ولما كان جهاد أعداءِ الله في الخارج فرعًا على جهادِ العبد نفسه في ذاتِ الله؛ كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ الله، والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى الله عنه)(278). كان جهادُ النفس مُقدَّماً على جهاد العدوِّ في الخارج.

---

[274]-- ديوان الشافعي /68

[275]--(التوبة: من الآية111)

[276]-(التوبة: من الآية112).

277--المحصول –شعر محمد العيد آل خليفة (شاعر الوطنية)عيسى حاجي-ص32.

[278]-- أبو داود: (246/4)، وابن ماجة: (681/2)، وقد روى شطره الأول البخاري: (2480

فهذان عدوَّانِ قد امتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات، والمشتهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنكَ العدويْنِ إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾279. والأمر باتخاذه عدوًا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنَّهُ عدو لا يفتر،ولا يُقصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطت عليه امتحاناً من الله له وابتلاء.

قال الشاعر :

إني ابتليت باربع ما صلطوا الا لشدة شقوتي وعنائي

ابليس والدنيا ونفسي والهوى كيف النجاة وكلهم اعدائي

فأعطى الله العبد مدداً وعُدَّةً وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجهاد، وأعطى أعداءه مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسلاحًا، وبَلاَ أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلُوَ أخبارهم، ويمتحن من يتولاه، ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾280 ، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾281 .

279--(فاطر: من الآية6)
280 - -(الفرقان: من الآية20)
281--(محمد: من الآية4)

والجهاد في حقيقته فرع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الغاية من الجهاد هي إعلاء كلمة الله عز وجل بعلو المعروف الأكبر وهو التوحيد وعبادة الله وحده، وإزهاق المنكر الأكبر وهو الشرك وأهله·لأن الغاية من الجهاد هي إعلاء كلمة الله عز وجل بعلو المعروف الأكبر وهو التوحيد وعبادة الله وحده، وإزهاق المنكر الأكبر وهو الشرك وأهله·

قال الشاعر :

ان المكارم أخرق مطهرة الدين أولها والعلم ثانيها

والعقل ثالثها والعلم رابعها والجود خامسها والفضل بانيها

لادار للمرئ بعد الموت يسكنها الا التي كان قبل الموت يبنيها

فان بناها بخير طاب مسكنه وان بناها بشر خاب بانيها

ولكن لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبدأ بجهاد البيان والبلاغ للناس، وتعريفهم بحقيقة سبيل المؤمنين الموحدين، وحقيقة سبيل الكافرين والمجرمين، كان لزامًا قبل جهاد الكفار والمرتدين أن يكون جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،يقول محمد العيد أل خليفة في احدى نزعاته الصوفية :

لأَرْبَابِ القُلُوبِ عُهُودُ صِدْقٍ**وَأَقْوَالٌ تَصْدُقُهَا الفِعَالُ

عَلَى القَلْبِ السَّلِيمِ بَنُوا وَشَادُوا** لَهُ مُلْكاً وَبِالمَلَكُوتِ جَالُوا

وَبِالظَّنِّ الجَمِيلِ جَنُوا ثِمَارًا **زَكِيَّاتٍ لَهَا زَكَتْ الخِلاَلُ

جَمَالُ الله أَذْهَلَهُمْ فَهَامُوا ** وَأَدْهَشَ بِالهَمِّ مِنْهُ الجَلاَلُ

فَمَا سَكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا قُلُوبًا ** وما ركنوا لزخرفها ومالوا

فكن أبداً مع الأبرار واجنح ** لهدى إمامهم فهو المثالُ

رسول سن سنته طريقاً ** معبدة يباح بها الوِصال

وعندما يُؤكد الشاعر على أهمية عدم الركون الى زخرف الدنيا فإنه يُفترض سلفًا أن الدعاة والمجاهدين قد فهموا وعلموا سبيل المؤمنين والمجرمين قبل غيرهم؛ وإلا فكيف سيبينونه للناس وفاقد الشيء لا يعطيه· وقد مضى في المرتبة الأولى من مراتب جهاد النفس ذكر مجاهدتها على تعلم الهدى والدين الحق، ومعرفة ما يناقضه· وعلم أصحاب الحق بسبيل المجرمين ضروري في توقيه ومحاربته، والاندفاع الشديد لمجاهدته ومجاهدة أهله·

وإن المتدبر لهديه صلى الله عليه وسلم في مكة وكيف واجه الكفار فيها ليجد أن جهاده صلى الله عليه وسلم في تلك الحقبة من الدعوة كان جهاد بيان وبلاغ

لتأخذ الدعوة حظها من البلاغ والقوة والتربية للقاعدة الصلبة· ولقد واجه عليه الصلاة والسلام في سبيل ذلك من الأذى والتعذيب لأصحابه الشيء العظيم حتى إذا استبانت سبيل المؤمنين واستبانت سبيل كفار قريش المجرمين، واتضحت السبيلان دون لبس ولا غموض، أذن الله عز وجل لرسوله والمؤمنين بالهجرة ثم الجهاد .

يقول الشاعر محمد بن سليمان[282] : في أبيات يصف معارك الرسول الرسول صلى الله عليه وسلم ويفيض في ذلك بصورنة تجعل من أبياته ترددا لما شاع في الأوساط الشعبية الجزائرية من تتبع لسيرة النبوية الشريفة بكل جزئياتها.

وَرَمَى جَيْشًا بِكَفٍّ مَنْ حَصَى عِنْدَ القِتَالِ
يوْمَ بَدْرٍ "وَحَنِينَ" فَتُولُوا في انْجِفالِ
كَمْ جَرَتْ في مَحْفَتِ مُقْتَفِيًا دَلاَئِلَ الخَيْرَاتِ[283]

[282]--محمد بن سلسمان (- 1927) من مستغانم لكنه عاش في بندرومة من تلاميد قدور بن سليمان ومن أقاربه له شعر كبير بالفصحى وبالعامية ولكنه لم يطبع ، معضم نظمه في التصوف والمائح الدينية.

[283]--د/ عبد الله الركيبي الشعر الديني الجزائري الحديث الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط 1981 .ص :61

وعن هذه المرحلة وضرورة بيان سبيل المؤمن وسبيل المجرمين قبل مصادمة الكفار يتحدث محمد قطب فيقول: "نحتاج أن نقف وقفات طويلة نتأمل فيها نشأة الجيل الأول؛ لأن فيها زادًا كاملاً لكل من أراد أن يدعو، أو يتحرك بهذا الدين في عالم الواقع؛ فقد صُنع ذلك الجيل على عين الله سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه لموسى عليه السلام: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [284]، ونشأ على يدي أعظم مرب في تاريخ البشرية، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان جيلاً فريدًا في تاريخ البشرية كله، يوجهه الله بالوحي، ويتابعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية والتوجيه، فاكتملت له كل وسائل النشأة الصحيحة في أعلى صورة، فأصبح كالدرس "النموذجي"، الذي يلقيه الأستاذ ليعلّم طلابه كيف يدرّسون، حين يئول إليهم أمر التعليم.[285]

ثم إن إرادة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت أن يتم أمر هذا الدين على السنن الجارية – لا الخارقة – لحكمة أرادها الله، لكي لا يتقاعس جيل من الأجيال فيقول: إنما نصر الجيل الأول بالخوارق، وقد انقطعت الخوارق بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم،! وفيما عدا هذه الخارقة التي اختص بها أهل بدر، وفيما عدا ما يختص بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد جرت أمور الإسلام كلها على السنة الجارية؛ من استضعاف في المبدأ، وابتلاء وصبر وتمحيص، ثم تمكين على تخوف، ثم تمكين على استقرار وقوة، ثم انتشار في الأرض. لذلك فإن الدروس المستفادة من نشأة الجيل الأول هي دروس دائمة، لا تتعلق بالنشأة الأولى وحدها، وإنما هي قابلة للتطبيق في كل مرة تتشابه فيها الظروف أو تتماثل؛ لأنها سنن جارية، وليست حوادث مفردة عابرة لا تتكرر.

[284]--(طـه: من الآية39)
[285]--محمد قطب " دراسات في النفس الإنسانية"

يقول الشاعر" الديسي" في قصيدته الدالية ، داعيا الى التمسك بخصاله صلى الله عليه وسلم :

إِذَا نَابَ خَطْبٌ فَاسْتَجِرْ بِمُحَمَّدٍ نَبِيَّ الهُدَى المَاحِي الحَبِيبُ المُمَجَّدُ

خُلَاصَةَ خَلْقِ اللهِ مِنْ كُلِّ كَائِنٍ وَاعْرِفْ أَهْلَ اللهِ بِاللهِ سَيِّدِي

رَؤُوفٌ رَحِيمٌ كَامِلٌ وَمُكَمّلُ وبَابُ طَرِيقِ اللهِ لِلْكُلِّ فَاقْتَدِ

ومما يلحق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميته في الإعداد للجهاد في سبيل الله عز وجل التواصي بين المتآخين في طريق الدعوة والجهاد، وأن لا يشغلهم الأمر والنهي الموجهان للناس عن الأمر والنهي فيما بينهم؛ فإن كل بني آدم خطاء، ولا عصمة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام· لذا فمن الطبيعي أن تظهر بعض الأخطاء والمنكرات في صفوف الدعاة ومن يعدون أنفسهم للجهاد· وحينئذ لا بد من الاحتساب بين الإخوان بأن يناصح بعضهم بعضًا، وأن يتواصوا بالحق والمعروف، وينبه المقصر في الحق على تقصيره، وينصح المتلبس بالباطل حتى يقلع عن باطله·

وبهذا التناصح والتواصي وإشاعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الدعاة والمجاهدين تقل المنكرات، ويفشو المعروف، وتقل المعاصي، وتكثر الطاعات، وتسود المحبة والألفة، وتتحقق بذلك أهم أسباب النصر على الأعداء؛ وهما طاعة الله عز وجل، والاجتماع والائتلاف؛ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [286] ووحدة الصف واجتماع الكلمة من أعظم ما يستعد به للجهاد.

ويرى الصوفية أنه في الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب التركيز على خطورة الفرقة والاختلاف، وبخاصة من الدعاة والمجاهدين؛ فإنها من أعظم المنكرات التي تضيع بها ثمار الدعوة والجهاد، ولذلك يجب التصدي لها ومحاربتها،

يقول أبو الوليد الشيباني أحد أبطال الإسلام وعين الأجواد يوصي أبناءه عند وفاته :

كونوا جميعا يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا وإذا افترقن تكسرت آحادا

وهذا لا يعني أن لا يحصل اختلاف في وجهات النظر وبعض الاجتهادات بين المتصوفة المجاهدين، لكنها لا يجوز أن تؤدي إلى الافتراق والمنابذة، ولنا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة؛ حيث اختلفوا في بعض المسائل لكنهم بقوا صفًا واحدًا وقلوبًا متآلفة أنعمنا الله بأعملهم وجهادهم ودعوتهم. فالاجتماع أصل، والمسائل التي قد يختلف عليها فروع، فلا يجوز بحال أن نضيع الأصل وهو الاجتماع لنحافظ على فرع، وإلا كنا كمن يهدم مصرًا ليبني قصرًا.

جهاد النفس في الصبر على الدعوة وبيان الحق وأذى الخلق :

وهذه المرتبة من جهاد النفس لا يستغني عنها المسلم في جميع مراتبه السابقة، وفي عمره كله. وبدون الصبر أو بضعفه لا يستطيع العبد أن يجاهد نفسه على تعلم الشريعة والتبصر في الدين، كما أنه يعجز عن العمل بما تعلمه، فضلاً عن أن يدعو إلى هذا

[286]--(الأنفال:45-46).

الهدى ويبينه للناس، ويتحمل ما يلاقيه في سبيل ذلك· وإذا كان لا غنى عن الصبر لكل مسلم، فإنه في حق المجاهدين والذين يعدون أنفسهم للجهاد أشد ·

اصبر على ما كرهت تحظ بما تهوى فما جازع بمعذور

إن اصطبار الجنين في ظلم الأحشاء أفضى به إلى النور

إذن فالصبر خلق عظيم رفيع الشأن لا بد من التزود به في أداء الطاعات واجتناب المحرمات، وفي مواجهة المصائب والمكروهات وفي مقاتلة الأعداء قال تعالى عن المتقين: **(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ)**[287].

والحديث عن الصبر وأنواعه ومراتبه وفضله لا يتسع له المقام[288]، وليس هو غرضنا في هذه الدراسة· وإنما مقصودنا هو الإشارة إلى ضرورة توطين النفس على الصبر والتحلي به للاستعداد للجهاد في سبيل الله تعالى لأنه الزاد، وهو من

أسباب النصر على الأعداء؛ قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)** [289]

---

[287]-(البقرة: من الآية177)

[288]- للتوسع في موضوع الصبر وما يتعلق به يمكن الرجوع إلى رسالة (وقفات تربوية في ضوء سورة العصر)، مبحث: "وتواصوا بالصبر" للمؤلف. عبد العزيز بن ناصر الجليل

[289]-(الأنفال:45-46)،

وما أحسن ما علق به سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية إذ يقول: "والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة· إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء ·· الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، .. والصبر على مرارة الجهاد ، وما تثيره النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغيظ، والحنق، والضيق، وضعف الثقة أحيانًا في الخير، وقلة الرجاء أحيانًا في الفطرة البشرية؛ والملل والسأم واليأس أحيانًا والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع ··

والمرابطة: الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء ·· وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبدًا، ولا تستسلم للرقاد! فما هادنها أعداؤها قط، منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة، والتعرض بها للناس· وما يهادنها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكان وما تستغني عن المرابطة للجهاد حيثما كانت إلى آخر الزمان!"[290] ا·هـ·

وسلف الأمة حملوا الأمانة بصدقٍ وصبرٍ وكانوا أحق بها وأهلها، وما ذلك إلا لحسن فهمهم وتلقيهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، فصبروا لله تعالى محتسبين مخلصين ولقد بلغوا في دُرَج الصبر شأناً رفيعاً حتى قال قائلهم :

[290] -- "في ظلال القرآن": (1/551، 552).

ولست أُبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلوٍ مُمزَّع

والمواطن التي يحتاج الداعية والمجاهد أن يوطن نفسه فيها على الصبر كثيرة من أهمها:

- الصبر على شهوات النفس ورغباتها وميلها إلى الراحة والترف والدعة.

وتَجَنَّبِ الشَّهواتِ واحْذَرْ أَنْ تَكُونَ لها قَتِيلًا

فَلَرُبَّ شهوةِ ساعةٍ قَد أَورثَت حزنًا طويلًا

- الصبر على ضعف النفس ونقصها وسرعة ملالها.
- الصبر على ضغوط الواقع وأذى الأعداء؛ فلا يتغلب اليأس ولا القنوط.
- الصبر على طول الطريق وشدة الابتلاء؛ فلا يدفع إلى العجلة والمواجهة قبل أوانها.
- الصبر على الناس وشهواتهم وجهلهم وسوء تصوراتهم، وانحراف طبائعهم، وإعراضهم عن الحق.
- الصبر على إخوان الدعوة والجهاد، وما يطرأ عليهم من ضعف

أما والذي لا خلد إلا لوجهه ومن ليس في العز المنيع له كفو

لئن كان بدءُ الصبر مراً مذاقه لقد يُجتنى من غِبِّه الثمر الحُلْوُ

والتربية على الصبر، وتوطين النفس عليه يحتاجان إلى جهد ومشقة وأخذ بالأسباب المعينة عليه. ومن أعظم الأسباب تقوية الصلة بالله عز وجل وكثرة ذكره وتسبيحه وكثرة العبادة.و الاعراض عن الحياة والمالوقد كان الامام الغزالي يخاف من لقاء الله، دون الوصول إلى تصفية النفس وتحقيق الإخلاص: "وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمح لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة

على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الحياة والمال، والهروب من الشواغل والعلائق"[291]

إن الآيات التي يأمر فيها الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر مقرونة بالأمر بالتسبيح والصلاة والاستغفار؛ قال الله عز وجل: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) [292]، وقال سبحانه: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [293]،

كما أن مما يعين على الثبات والصبر وعدم النكول والضعف ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الصبر عن أنواع الصبر، وأن هناك شروطًا ثلاثة إذا حققها العبد في صبره حصل له الثبات، وإن تخلف واحد منها أو أكثر ضعف صبره وخذل· وملخص هذه الشروط ما يلي:

1- أن يكون الصبر بالله تعالى؛ وذلك بالتبرؤ من الحول والقوة والاعتراف بالضعف والهلكة لو وكل العبد إلى نفسه· وهذا ينبه على ضرورة الاستعانة بالله عز وجل وسؤاله الصبر والثبات؛ لأنه سبحانه هو المصبر والمثبت ولولاه لم يصبر الصابرون ولم يثبت المجاهدون·

2 - أن يكون الصبر لله تعالى؛ بأن يكون الباعث على الصبر محبة الله عز وجل وإرادة وجهه، والتقرب إليه ورجاء ثوابه، لا لإظهار الشجاعة وقوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأغراض·

---

[291]-- أبو حامد الغزالي: المنقذ من الظلال، المكتبة العصرية، ط 1، صيدا - بيروت 2003، ص 65.

[292]-(طـه:130)

[293]--(الحجر:97-99)

3- أن يكون الأمر المصبور عليه مرضيًا لله تعالى ودائرًا مع مراده الديني وأحكامه الدينية صابرًا نفسه معها سائرًا بسيرها، يتوجه معها أين توجهت ركابها، وينزل معها أين استقلت مضاربها[294].

ونظراً لأهمية هذه الشروط في تحقيق الصبر وكماله كان لزامًا على من يعدون أنفسهم للدعوة والجهاد في سبيل الله عز وجل أن يعتنوا بهذه الأمور، ويبذلوا الأسباب العلمية والعملية في تقويتها في النفس، وأن يتواصوا بها؛ فما خذل عبد في موقف وضعف صبره فيه إلا بتخلف واحد أو أكثر من هذه الشروط.

ويرى الصوفية أن ضعف الصبر لدى المجاهد يجعله لا يتحمل أعباء الطريق وأذى الأعداء مما يؤدي به إلى الوراء فيفتر أو يترك الدعوة والجهاد، أو يداهن الأعداء أو ييأس ويصيبه الإحباط.

وهذا لاشك أنه ضعف في الصبر والتربية، لكن ضعف الصبر لا ينحصر في هذا فقط، وإنما هناك نوع آخر من ضعف الصبر في طريق الدعوة والجهاد قد ينظر إليه في الوهلة الأولى أنه شجاعة وإقدام وقوة وصبر، ولكنه في الحقيقة إنما نشأ من ضعف في الصبر واستعجال للنتائج. وتتجلى أهمية هذا الأمر بخاصة في واقعنا المعاصر الذي يشهد من بعض الدعاة حماسًا مفرطًا واستعجالاً ومسارعة لمواجهة الأعداء قبل الإعداد والاستعداد لذلك علمًا وعملاً ودعوة وعدة وعتادًا.

وقد ينظر إلى هذه الممارسات - كما أسلفت - على أنها قمة الشجاعة والصبر والتحمل، لكنها - والله أعلم - قد تكون في أغلبها إنما نشأت من عدم الصبر على طول الطريق واستكمال جوانب الإعداد. وزاد في إذكائها أذى الأعداء وما يواجهون به الدعاة من السجن والتعذيب والتقتيل[295].

294-- انظر "مدارج السالكين": (157/2).

295-- بعض المتحمسين من جهاد الطلب في أماكن لم يتبين للناس فيها حقيقة المجاهدين، وحقيقة أعدائهم، مع ضعف في الاستعداد لذلك.

وهنا يحسن الاستئناس بآية (كف اليد) في مكة؛ حيث أُمِرَ المسلمون بذلك لحكمة عظيمة، وأحسب أن المقام مناسب لذكرها والوقوف عند مدلولاتها، وما مدى الاستفادة منها في ضوء الصراع القائم اليوم مع الكفار والمنافقين في داخل بلدان المسلمين.

يقول الله عز وجل: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) [296]، وامتثل الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون

معه أمر ربهم فكفوا أيديهم في مكة وصبروا على الأذى والتعذيب، وعلى كل الممارسات الاستفزازية، مع قدرتهم الفردية على الرد والانتقام، ووجه الرسول صلى الله عليه وسلم همه إلى البيان والبلاغ بدعوة التوحيد، وإلى التربية الجادة لمن دخل في الإسلام، مع الاستمرار على ضبط النفس، حتى أذن الله عز وجل لهم بعد ذلك في الهجرة ثم الجهاد. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبره وعدم عجلته في تلك الظروف العصيبة أسوة حسنة.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى حول آية (كف اليد): "كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، ولم تكن ذات النصب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يحترقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم،

---

[296]--(النساء:77)

ومنها كونهم في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لائقًا؛ فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار"[297].

ويعلق صاحب الظلال رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله: "إن أشد الناس حماسة واندفاعًا وتهورًا، قد يكونون هم أشد الناس جزعًا وانهيارًا وهزيمة عندما يجد الجد، وتقع الواقعة .. بل إن هذه قد تكون القاعدة! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبًا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال؛ قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة، فتدفعهم قلة الاحتمال، إلى طلب الحركة

والدفع والانتصار بأي شكل؛ دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار .. حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدَّروا، وأشق مما تصوروا. فكانوا أول الصف جزعًا ونكولاً وانهيارًا .. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت، ويعدون للأمر عدته، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف. فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته .. والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافًا، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور! وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالاً؛ وأي الفريقين أبعد نظرًا كذلك!

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه، ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة. فيندفع يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأذن له بدفع الأذى، أو حفظ الكرامة. والرسول صلى الله عليه وسلم يتبع في هذا أمر ربه بالتريث والانتظار، والتربية والإعداد، وارتقاب الأمر في الوقت المقدر المناسب، فلما أن أمن هذا الفريق في المدينة، ولم يعد هناك أذى ولا إذلال. وبعد لسع

---

[297] -- "تفسير ابن كثير": عند الآية (رقم: 77) في سورة النساء.

الحوادث عن الذوات والأشخاص لم يعد يرى للقتال مبررًا، أو على الأقل لم يعد يرى للمسارعة به ضرورة!

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[298].

وقد يكون هذا الفريق مؤمنًا فعلاً؛ بدليل اتجاههم إلى الله في ضراعة وأسى! وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا؛ فالإيمان الذي لم ينضج بعد، والتصور الذي

لم تتضح معالمه، ولم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض؛ وأنها أكبر من حماية الأشخاص، وحماية الأقوام، وحماية الأوطان؛ إذ أنها في صميمها إقرار منهج الله في الأرض، وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم، وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان، يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله، ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض، ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه – إذا هو اختاره بكامل حريته – بأي لون من ألوان الفتنة ..."[299].

ومن خلال (كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) تكونت النواة الأم التي صنعت التاريخ!

ولو كان المؤمنون قد دخلوا في معركة مع قريش في مكة، لتأخر كثيرًا تكوّن النواة الأم، ولتغيرت كثيرًا صفاتها التي اكتسبتها، وذلك فوق الغبش الذي كان سيصيب قضية لا إله إلا الله، حين تتحول إلى قضية ضارب ومضروب،وغالب ومغلوب، ولتأخر كذلك التجمع الصلب حول النواة الصلبة المصقولة المتينة البناء .. لقد تمت أمور على غاية من الأهمية في مسيرة الدعوة.

تم تحرير موضع النزاع، إن صح التعبير .. إنه قضية "لا إله إلا الله" دون غيرها من القضايا ..

---

[298] (النساء: من الآية77)

[299] --"في ظلال القرآن": (2/712، 713) " بتصرف".

ليس الصراع الدائر بين قريش وبين المؤمنين على سيادة أرضية، ولا على السلطة السياسية (وقد عُرضت السلطة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأباها، وأصرَّ على لا إله إلا الله، والمؤمنون من جانبهم لم يتحركوا حركة واحدة تهدف إلى الاستيلاء على السلطة) ..

ليس الصراع على "شرف" سدانة البيت، ولا "وجاهة" خدمة الحجيج ..

ليس على القوة الاقتصادية التي تملكها قريش وحدها دون المؤمنين، وتحارب المؤمنين من خلالها بالحصار والتجويع، والمؤمنون لا يتعرضون لها من قريب ولا بعيد.

الصراع كله على القضية الكبرى التي هي – والتي يجب أن تكون دائمًا – القضية الأولى، والقضية الكبرى في حياة الإنسان؛ قضية من المعبودُ؟ ومن ثَمَّ من صاحبُ الأمر؟ من المشرِّع؟ من واضع منهج الحياة؟ قريش تريدها حسب أهوائها وخيالاتها وموروثاتها وأعرافها، والمؤمنون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدونها لله.

وتم تركيز الجهد وتوفيره لتربية القاعد الصلبة، التي ستحمل البناء، وتم تحرير قضية "الشرعية"، بتفصيل الآيات واستبانة سبيل المجرمين.

وتم أخيرًا اتساع القاعدة بالجنود الذين استضاءوا بالنار التي اكتوى بها أهل النواة الأم، فتجمعوا بقدر من الله، وبحسب سنة من سنن الله، حول تلك النواة، مضيفين إليها قوة حقيقية في الصراع.

ثم تم أمر آخر بالغ الأهمية كذلك؛ وهو التجرد لله.

ويكون بمجموعة من القواعد والمبادئ، أسسها الامام الغزالي وقبل أن يتكلم عن تلك القواعد يؤكد على ضرورة الارتواء من نبع الكتاب والسنة النبوية، والتزام ما فيهما من أوامر ونواهي، ولا يكون ذلك إلا إذا شمر المريد، عن ساعد الجد، وسهر الليالي عبادة وذكرا طلبا للمراد[300]

[300]-- الغزالي: القواعد العشرة، المكتبة العصرية، ط. 1، صيدا - بيروت 2003، ص 119.

ويحتاج في كل ذلك إلى صبر، وتدرج في درجات محبة الله، ومواصلة الذكر لتحقيق حقيقة التوحيد، ولا يتأتى ذلك إلا إذا حقق المريد قواعد منها:

1 –النية الصادقة الواقعة من غير التواء، بناء على حديث النبي (ص): "وإنما الأعمال بالنيات،ولكل امرئ مانوى"[301] والمراد بالنية عزم القلب الصادق على الفعل أو الترك لله، والاستمرار على ذلك، وعدم تغيير تلك النية، والقصد إلى الفعل دون ربط ذلك بأي عرض من أعراض الدنيا، والعمل دوما للحق، ولا يترك ما نواه أو عزم عليه للخلق[302]

2–إخلاص العمل لله، من غير شريك، ولا اشتراك، وعدم الرضا بغير الحق، والثبات عليه وتجنب الخلق، وكل الشبهات، والتخلق بالقناعة[303] ، وقد أكد الغزالي الإخلاص بنصوص شرعية متمثلة في الأحاديث نذكر منها: "أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك"[304]، وأيضا "تعِسٌ عبد الدينار"[305]، وكذلك "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[306]، و"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"[307]، و"كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل"[308]

والملاحظ أن القاعدة الثانية امتداد للأولى وشرح لها، وإذا رجعنا إلى الإخلاص عند الصوفية وجدنا البعض كالسهروردي يعتبره سرا من أسرار الله يهبه من يشاء، بل اعتبره البعض أساس التصوف .

---

[301]-- حديث صحيح، رواه عمر بن الخطاب، صحيح البخاري، باب بدء الوحي
[302]-- الغزالي: المصدر السابق، ص 121
[303]-- المصدر نفسه، ص 122
[304]-- حديث صحيح، رواه أبو هريرة من حديث طويل عن الإيمان، وهو جواب عن ما الإحسان؟ وهو في صحيح البخاري وكتاب الإيمان.
[305]-- حديث صحيح، رواه أبو هريرة، في صحيح البخاري، باب الحراسة في الغزو.
[306]-- حديث رواه أبو هريرة، سنن الترمذي، قال الترمذي: حديث غريب، كتاب الزهد.
[307]-- حديث رواه الحسن بن علي، سنن الترمذي، قال الترمذي: حسن صحيح، كتاب صفة القيامة.
[308]-- ديث صحيح، رواه عبد الله بن عمر، صحيح البخاري، كتاب الرقائق.

3-إتباع أوامر الشرع، وذلك "بموافقة الحق بالاتفاق والوفاق، ومخالفة النفس بالصبر على الفراق والمشاق وترك الهوى"[309]. وذلك بالالتزام بكل ما جاءت به الشريعة، والميل لأوامر الله، وليس لأوامر الدنيا.

إن التجرد لله عنصر من أهم العناصر التي تحتاج إليها الدعوة، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، بالنسبة للقاعدة بصفة خاصة، وبالنسبة لجميع العالمين على وجه العموم.

ولقد تعمق التجرد لله في قلوب الصفوة المختارة، خلال فترة التربية في مكة، من خلال الآيات المنزلة من عند الله، تدعو إلى إخلاص العبادة لله، ومن خلال القدوة المباشرة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، يعلمهم بالسلوك العملي كيف يكون إخلاص العبادة لله.

و الاستعجال في جهاد الكفار قبل الإعداد الإيماني المتمثل في التربية على العلم بالشرع ورسوخ العقيدة، والعمل الصالح، والدعوة والبلاغ للناس؛ فيه من المفاسد والشرور التي يتحتم على الدعاة والمجاهدين أن يدرءوها بالصبر وضبط النفس ومواصلة الإعداد الشامل حتى يهيئ الله عز وجل الظروف والأسباب التي يُمَكِّن الله بها لأهل الحق ويدمغ الباطل وأهله.

وإن الناظر اليوم في بعض الحركات المتعجلة التي أعلنت الجهاد قبل الإعداد والدعوة والبيان الكافية لتجلية سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين للناس، ليرى فتنًا ومفاسد قد ظهرت بسبب هذا الاستعجال وضعف الصبر على طول الطريق. وقد يتهم بعض المتحمسين لبدء الصدام مع الكفار والمنافقين إخوانهم الذين يرون

[309]-- الغزالي: القواعد العشرة، ص 123

التربية والإعداد والبدء بجهاد البيان قبل جهاد السنان بأنهم مخذلون، أو أنهم يريدون السلامة وعدم التعرض لأي شيء يؤذيهم ويكدر عليهم حياتهم.

وللرد على هذه التهمة يقال لهم: إن إخوانكم الذين يرون الصبر على جهاد النفس وجهاد البيان للناس إنما هم في جهاد ويشاركونكم الغاية والهدف، وهم بذلك يعدون العدة لجهاد الكفار وقتالهم في الوقت المناسب بعد الأخذ بأسباب النصر والتمكين. وهم بطرحهم هذا يؤدون واجب النصح لكم لما في قلوبهم من الشفقة عليكم، والحب والولاء لكم، ولكل من يهمه أمر هذا الدين ويسعى لنصرته؛ فهم يتواصون معكم بالحق والصبر وليسوا مخذلين.

أما القول بأنهم يسعون بطرحهم هذا إلى تجنيب أنفسهم البلاء والعناء، فلا شك أن السلامة والعافية مطلوبان، لكن الابتلاء والتمحيص سنة من سنن الله عز وجل في عباده وبخاصة الدعاة منهم والمجاهدين، قال تعالى: (**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**)[310].

فأهداف الصوفية في الاعداد للجهاد و المجاهدة أولاً : صفاء النفس: حيث عرف بعض أئمة الصوفية والعلماء ماهية النفس، فقال الكندي: " أن النفس جوهر روحاني صافٍ بسيط وهي لاتنام ودائماًيقضة و يرى ابن سيناء: " أن النفس جوهر بسيط مجرد من المادة قد قدّر لها الهبوط إلى الجسم المادي من العالم العلوي.

وطبيعة النفس ميّالة إلى الشرور والآثام، فإن لم تقهر دمرت حياة الإنسان.فنجدها لا تميل إلى العبادات المفروضة على الإنسان.لأنها تحسبها قيوداً،كما لا تميل إلى المتابعة والمراقبة.

[310]--(محمد:31)

ملء إرادتي وبملء بأسي

عصيتُ بعالم الشهَوات نفسي

وعصياني لها رضوانُ ربي

وعزّة حاضري وغدي وأمسي

وطبيعة تكوينها أنها ميالة إلى الإعجاب بالرأي وإلى التظاهر والتفاخر، لهذا فالإسلام يقف منافياً لميولها، يرتضي ما كان منها طيباً ويرفض كل ما ينافي الأخلاق الحميدة.ومن هذا المنطلق تسعى المدرسة الصوفية إلى إيجاد الصفاء النفسي،وذلك عن طريق المجاهدة الشاقة والمكابدة،لهذا وضعت تدريبات قاسية يمارسها الطالب الصوفي لأن جهاد النفس، والبيان للناس ليس أمرًا هينا وأصحابه معرضون لأذى الأعداء

إذا أسلمتُ للنفس انقيادي

جرعتُ الذُّل كأساً بعد كأسِ

وعين الذل أن أحيا رقيقاً

بطاعة أمرها أضحي وأُمسي

وإني قد أبيتُ لها انقياداً

وصنت كرامتي ورفعتُ رأسي

فجهاد البيان يقتضي بيان الحق، وفضح ما يضاده من الباطل، وهذا أمر لا يرضى به الكفار والمنافقون ومن ثم سيجندون وسائلهم المختلفة من تشويه، وترغيب وترهيب، وكل ما يستطيعون لإخماد صوت الحق وإسكات أهله· وهذا كله بلاء وفتنة يتعرض لها الدعاة الذين يعدون أنفسهم وأمتهم للجهاد، وليكون الدين كله لله·

إذن فأمر الإعداد للجهاد بالإيمان والبيان ليس أمرًا سهلاً إذا أخذ بعزم وجد· وكم يحتاج من التضحيات والصبر والمصابرة وطول النفس· وقد يتعرض أهله فيه من البلاء والقرح والشدائد ما قد يفوق ما يتعرض له المجاهد في ساحات الوغى من المهالك والمتالف·

أسيِّرالنفس كما أهوى وليست

كما تهوى تُسيّرني لبؤسي

أحاسبها قبيل حلول يومٍ

أحاسب فيه ممدوداً برمسي

ونظرة سريعة إلى ما تعرض إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين في مكة من البلاء والتعذيب والحصار والتجويع والتشريد تعطينا دليلاً على أن جهاد التربية والإعداد والبلا غ والبيان يحتاج إلى صبر وتضحية واستعلاء على حب الراحة والسلامة لا يقل عن الصبر على قتال الأعداء·

/ ابتغاء اظهار الدين

- الإخلاص لله عز وجل:

وهو من أعظم أعمال الانسان الصوفي والتي لا يطلع عليها إلا الله عز وجل، وهو أن يريد الإنسان بقرباته وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال الشاعر :

سبحان من لو سجدنا بالجباه له ... على شبا الشوك و المحمي من الإبر

لم نبلغ العشر من معشار نعمته ... ولا العشير ولا عشرا من العشر

ومن ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل والذي يقدم فيه العبد أغلى ما عنده – وهي نفسه التي بين جنبيه – فإذا لم يكن قاصدًا بجهاده وجه الله عز وجل ورضوانه وجنته في الآخرة خسر خسرانًا مبينًا؛ ولذلك يجب إعداد المجاهدين قبل الجهاد بالإخلاص في أعمالهم والتجرد لله سبحانه في حركاتهم وسكناتهم وأخلاقهم و أدابهم. ومثال ذلك الأمير عبد القادر كان صاحب عقل ومعرفة وحكمة فامتلك صفاء المعاملة في جهاده عن وطنه كما قال صاحب (.....الأبرار في علوم القلوب والأسرار). المتصوفون هم رجال الكمال، الواقفون عند الحدود، الرائعون في معارف الجود، المتأدبون بآداب التنزيل، والعاملون ما يرضى الرب الجليل.

تتجلى هذه الأفكار كلها في آداب الأمير ومعاملة الأسرى، (حيث كان ينزلهم على ما رواه المؤرخون منزلة الضيوف، ويأمر لهم بأفخر الطعام وأحسن الملبوس، وقد افرد شرسل الإنكليزي الفصل السادس عشر من تاريخه [311]ما كان يعامل به الأمير الأسرى الواقعين في يده المعاملة الحسنة والرحمة والشفقة وأيد ذلك بحكايات قال (إن الاعتناء الموجود عند الأمير عبد القادر لأسراره الزائدة عن الحد لم يكن له مثال في أخبار الحرب).

إن القارئ قد يحتار في سبب معاملة الأمير لأسراه بهذه الصفة بل نجد المؤرخ يرسل الانكليزي نفسه يستغرب أمام هذا الاعتناء بالأسرى ويقول لم يكن له مثال في أخبار الحرب، ولكن قد يزول هذا التساؤل عندما تدرك أن الأمير متشبع بمبادئ الصوفية الحقة ،العالمة التي تداوي أمراض النفوس قال فيهم الشاعر:

بقوا بشهود الحق من بعد ما فنوا عن الكون فاستجلو ضياء المواهب

يداوون أمراض النفوس بحملها على ضد ما فهمواه ذات المصائب

إن من شدة حرص الأمير على الاعتناء بشان أسراه، كتب إلى أسقف الجزائر، أن يرسل إليه كاهنا ليسليهم ويخفف مصائب الأسر عليهم، ويكتب لهم ما يريدون

أن يكتبوه لعيالهم، ويكون ذلك الكاهن أمينا على نفسه وضيفا مكرما عنده.ثم قال: إن كان قلب الأمير قاسيا عند لقاء الخطر لكنه يلين ويذوب شفقة، عند مشاهدة حزن الأسرى.

قال في تاريخه: إن الأمير كان في صورة عدو كريم الأخلاق.[312]

---

[311] -- NARRATIVE OF A CAMPAIGN- AGAINST THE KAHAILES OF- ALGERIA –WITH THE ISSION OF M. S; المصدر مجلة الأصالة العدد 25 ص65

[312] -- التصوف والأمير عبد القادر الجزائري/ جواد المرابط، صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة سنة 2007 بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

/ ابتغاء اظهار الدين

- الإخلاص لله عز وجل:

وهو من أعظم أعمال الانسان الصوفي والتي لا يطلع عليها إلا الله عز وجل، وهو أن يريد الإنسان بقرباته وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال الشاعر :

سبحان من لو سجدنا بالجباه له ... على شبا الشوك و المحمي من الإبر

لم نبلغ العشر من معشار نعمته ... ولا العشير ولا عشرا من العشر

ومن ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل والذي يقدم فيه العبد أغلى ما عنده – وهي نفسه التي بين جنبيه – فإذا لم يكن قاصدًا بجهاده وجه الله عز وجل ورضوانه وجنته في الآخرة خسر خسرانًا مبينًا؛ ولذلك يجب إعداد المجاهدين قبل الجهاد بالإخلاص في أعمالهم والتجرد لله سبحانه في حركاتهم وسكناتهم وأخلاقهم و أدابهم. ومثال ذلك الأمير عبد القادر كان صاحب عقل ومعرفة وحكمة فامتلك صفاء المعاملة في جهاده عن وطنه كما قال صاحب (.....الأبرار في علوم القلوب والأسرار). المتصوفون هم رجال الكمال، الواقفون عند الحدود، الرائعون في معارف الجود، المتأدبون بآداب التنزيل، والعاملون ما يرضى الرب الجليل.

تتجلى هذه الأفكار كلها في آداب الأمير ومعاملة الأسرى، (حيث كان ينزلهم على ما رواه المؤرخون منزلة الضيوف، ويأمر لهم بأفخر الطعام وأحسن الملبوس، وقد افرد شرسل الإنكليزي الفصل السادس عشر من تاريخه[313] ما كان يعامل به الأمير الأسرى الواقعين

[313] -- NARRATIVE OF A CAMPAIGN- AGAINST THE KAHAILES OF- ALGERIA –WITH THE ISSION OF M. S; المصدر مجلة الأصالة العدد 25 ص65

في يده المعاملة الحسنة والرحمة والشفقة وأيد ذلك بحكايات قال (إن الاعتناء الموجود عند الأمير عبد القادر لأسراه الزائدة عن الحد لم يكن له مثال في أخبار الحرب).

إن القارئ قد يحتار في سبب معاملة الأمير لأسراه بهذه الصفة بل نجد المؤرخ يرسل الانكليزي نفسه يستغرب أمام هذا الاعتناء بالأسرى ويقول لم يكن له مثال في أخبار الحرب، ولكن قد يزول هذا التساؤل عندما تدرك أن الأمير متشبع بمبادئ الصوفية الحقة ،العالمة التي تداوي أمراض النفوس قال فيهم الشاعر:

بقوا بشهود الحق من بعد ما فنوا عن الكون فاستجلو ضياء المواهب

يداوون أمراض النفوس بحملها على ضد ما فهمواه ذات المصائب

إن من شدة حرص الأمير على الاعتناء بشان أسراه، كتب إلى أسقف الجزائر، أن يرسل إليه كاهنا ليسليهم ويخفف مصائب الأسر عليهم، ويكتب لهم ما يريدون

أن يكتبوه لعيالهم، ويكون ذلك الكاهن أمينا على نفسه وضيفا مكرما عنده.ثم قال: إن كان قلب الأمير قاسيا عند لقاء الخطر لكنه يلين ويذوب شفقة، عند مشاهدة حزن الأسرى.

قال في تاريخه: إن الأمير كان في صورة عدو كريم الأخلاق.[314]

نعم إن المتصوف كما عرفه العلماء يكون في كل وقت بما هو أولى به في ذلك الوقت، بمعنى أنه إذا كان في وقت الصلاة كان مصليا وإن كان في وقت الذكر كان ذاكرا وإن كان في وقت الجهاد كان مجاهدا لذلك قيل الصوفي مخلص لموقفه.كل دلك لأنه روض نفسه وأخضعها لارادته .

يقول الشاعر :

[314]-- التصوف والأمير عبد القادر الجزائري/ جواد المرابط، صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة سنة 2007 بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

ومهما زيَّنت قُبح الخطايا

وبثّت غيَّها في كل هجسِ

سأبقى ما حييتُ أقول كلا

لما تُمليه من زللٍ ورجس

وكما أن للإخلاص أثره في نيل رضا الله سبحانه وما أعده للمجاهدين الصادقين، فإن له أثرًا كذلك في الثبات أمام الأعداء لقوله تعالى: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) [315]، وإذا تمكن الإخلاص من

القلوب أثمر التضحية والشجاعة في سبيل الله عز وجل، وأثمر الصبر، والزهد في الدنيا ومتاعها الزائل، وتوحد الهم في إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دين الله تعالى؛ وبذلك ترتفع الهمة ويعلو المقصد ويوجه إلى الله تعالى والدار الآخرة وما أعد الله فيها لعباده المجاهدين من الرضوان والنعيم ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

والإخلاص من أشرف أعمال القلوب التي يجب أن يعتنى بها في جميع الأعمال، ولا سيما في الإعداد للجهاد في سبيل الله تعالى؛ وذلك لما يتعرض له المجاهد من فتنة الشهرة، أو حب المدح، والثناء عليه بالشجاعة والبذل والتضحية.يقول شاعر الرسول:

تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك إلها انت أعلى وأمجد

لك الخلق والنعماء والأمر كله فإياك نستهدي وإياك نعبد

[315]--(الفتح: من الآية18)

ولذلك لا يكاد يذكر الجهاد في الكتاب والسنة إلا ويذكر بعده "في سبيل الله"· وكذلك من يقتل في القتال مع الكفار لا يسمى شهيدًا إلا إذا كان في سبيل الله·. قال تعالى: **(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ)** .[316]أي الذين أخلصوا في جهادهم لله تعالى ولم يريدوا شيئًا من حظوظ هذه الدنيا الفانية.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله: "ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء؟ إنهم أولئك الذين يقتلون "في سبيل الله" ·· في سبيل الله وحده، دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله· في سبيل هذا الحق الذي أنزله·

في سبيل المنهج الذي شرعه· في سبيل هذا الدين الذي اختاره ·· في هذا السبيل وحده، لا في أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر، ولا شركة مع هدف أو شعار· وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث، حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر ·· غير الله ··

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله: رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضًا من الدنيا؟ فقال: (لا أجر له) فأعاد عليه ثلاثًا· كل ذلك يقول: (لا أجر له)[317] أخرجه أبو داود·

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تضمن الله تعالى لمن خرج في سبيله؛ لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة· والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم وريحه مسك· والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما

316- (البقرة:154).

317- أبو داود (2516) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم: (2196).

قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل)[318].

فهؤلاء هم الشهداء. هؤلاء الذين يخرجون في سبيل الله، لا يخرجهم إلا جهاد في سبيله، وإيمان به، وتصديق برسله.

ولقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتى فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته في مجال الجهاد: عن عبدالرحمن بن أبي عقبة عن أبيه – وكان مولى من أهل فارس —

قال: شهدت مع النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا، فضربت رجلاً من المشركين،

فقلت: خذها وأنا الغلام الفارسي. فالتفت إليّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (هلا قلت: وأنا الغلام الأنصاري؟ إن ابن أخت القوم منهم، وإن مولى القوم منهم)[319].

فقد كره له " أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي صلى الله عليه وسلم، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين. وهذا هو الجهاد، وفيه وحده تكون الشهادة وتكون الحياة للشهداء"[3201].

ويقول في موطن آخر – رحمه الله –: "إنه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده. والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

113مسلم (1876).

[319] - أبو داود (5123)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (1096).

[320]-- في ظلال القرآن 144/1

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية· ويقاتل رياء· أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[321].

وليس هنالك من راية أخرى، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فيحق له وعد الله بالجنة، إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف·

أصون الحق لا أخشى ان أبصرت خلفه عنقي تدق

ولست بجازع ما دام قلبي يردد : إن وعد الله حق

"لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا؛ العليا في النفس والضمير، والعليا في الخلق والسلوك، والعليا في الأوضاع والنظم، والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة· وما عدا هذا فليس لله ولكن للشيطان·وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد·

وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام· وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف"[322].

ومن ثمار الإخلاص في الدنيا أنه سبب من الأسباب القوية في سلامة القلوب، ووحدة الصف، وجمع الكلمة وائتلاف القلوب وقطع الطريق على من يريد التحريش بين المسلمين وإثارة الفرقة بينهم؛

321--"المفردات": (ص99).

322--"في ظلال القرآن": (3288/6).

لأن من أعظم أسباب الفرقة والاختلاف والتناحر بين الدعاة والمجاهدين بعضهم مع بعض ضعف الإخلاص، وتغلب الهوى وحظوظ النفس، فإذا حصل الإعداد القوي والتربية الجادة على الإخلاص قبل الجهاد وأثناءه فإن هذا من شأنه أن يقضي على الفرقة والتناحر.

وأن يوحد الصف ويجمع الكلمة على قتال الأعداء، وبهذا يُقضى على سبب خطير من أسباب الفشل والهزيمة؛ قال تعالى: **(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)** .[323]

وإن مما يقوي الإخلاص وينميه: صدق المحبة لله تعالى – والتي سبق ذكرها – وصدق التوحيد والعبودية لله تعالى واليقين الصادق باليوم الآخر، والقراءة في سير الصالحين المخلصين وكيف كان حرصهم على تحقيق الإخلاص في جميع أعمالهم، وخوفهم من الرياء والنفاق، وإخفاؤهم لأعمالهم، وحفظهم لها من كل ما يكون سببًا في إحباطها وإبطالها؛ فإن ذلك مما يشوق النفوس إلى أعمالهم واللحوق بهم.

كما أن وجود القدوات المخلصة التي تعلم وتربي وتوجه يعد من الأسباب المهمة في إعداد المجاهدين المخلصين، كما أن من أعظم أسباب الإخلاص الزهد في الدنيا والتخفف منها، والإكثار من ذكر الموت، والتطلع إلى الدار الآخرة، والطمع في رضوان الله تعالى ونعيمه فيها، والخوف من سخطه وعذابه. وهذا ما سيدور الكلام حوله في الفقرة التالية من أعمال القلوب.

(أ) الكرم والجود والبذل في سبيل الله.

قال أحدهم:

أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً *** ولا تطع في سبيل الجود عذالاً

من جاد جاد عليه الله واستترت *** عيوبه وكفى بالجود سربالاً

---

[323]--(الأنفال: من الآية46) .

وهذه الأخلاق تنشأ من الشجاعة لأنها تحمل صاحبها على البذل النفس والروح التي هي أعز وأغلى ما يملك الإنسان في سبيل الله عز وجل· قال الشاعر:

جودوا بالنفس إن ضنَّ البخيل بها *** والجود بالنفس أغلى غاية الجود

ولذلك فإن البخيل في العادة لا تجده إلا جبانًا خوارًا، والبخل والجبن قرينان، كما أن الكرم والشجاعة قرينان، وقد قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين الجبن والبخل في دعائه حيث قال: (اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن)[324].

ولذلك يحث الصوفية على مجاهدة النفس على بذل ما تحبه، وتعويدها على الجود والإيثار وحب الخير للمسلمين، وبذل الجاه لهم بالمساعدة والشفاعة والسعي في حوائجهم· وهذا أمر يحتاجه المجاهد في سبيل الله لأن بيئة الجهاد بيئة بذل فكانت بالضرورة بيئة إيثار وتكافل وتعاون بين المجاهدين، وأجواء الجهاد والمجاهدين لا مكان فيها لأهل الأثرة والشح والأنانية والبخل·

وقد أعد الله لعباده المجاهدين في الآخرة الكثير من النعيم والرضوان، ومما يساعد على ذلك أيضًا العيش في بيئات أهل العلم والزهادة والجهاد؛ لأن في رؤية القدوات من أهل السخاء والشجاعة والجود وطول صحبتهم أثرًا في التربية على هذا الخلق الكريم وغيره من الأخلاق، كما أن فيها التواصي والتذكير والحث على هذه الأخلاق·

[324] -- البخاري: (6370).

كما أن في قراءة سير أهل الشجاعة والجود والكرم من سلف هذه الأمة وعلى رأسها سيرة سيد المجاهدين وبطل الأبطال وأكرم الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم – دافعًا ومحفزًا للاقتداء بهم واتباع آثارهم.

(ب) العفو والصفح وكظم الغيظ :

وردت في الكتاب والسنة نصوص كثيرة تحث على هذا الخلق الكريم وتمدح أهله وتعدهم بالثواب الجزيل في الآخرة. قال الله تعالى: **(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)**[325].

وبالتأمل في هذه الآية نجد أن الله عز وجل قد ذكر قبلها آيات في غزوة أحد والاستعداد لها؛ وذلك في قوله: **(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**[326]. وأرى أن تفسير السيد قطب لايختلف مع الصوفية حين يقول:"... وإذن فهذه التوجيهات الشاملة ليست بمعزل عن المعركة؛ فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية، والذين تولوا يوم التقى الجمعان في "أحد" إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب. والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب، والالتجاء إلى الله، والالتصاق بركنه الركين.

---

[325]--(آل عمران:133-134)

[326]--(آل عمران:121)

والتطهر من الذنوب إذن والالتصاق بالله والرجوع إلى كنفه من عدة النصر، وليست بمعزل عن الميدان! واطراح النظام الربوي إلى النظام التعاوني من عدة النصر؛ والمجتمع التعاوني أقرب إلى النصر؛ من المجتمع الربوي· وكظم الغيظ والعفو عن الناس من عدة النصر، فالسيطرة على النفس قوة من قوى المعركة، والتضامن والتواد في المجتمع المتسامح قوة ذات فاعلية كذلك"[327].

والأصل في العفو وكظم الغيظ وكف الأذى هو خلق الصبر قال الشاعر :

وماالصبرإلا نعمة من الهنا يمن بها في النائبات لمن شكر
فكم من قوي والبلايا تحفه يجانبه التوفيق دوماً فما صبر
وكم من ضعيف أعظم الله أجره فأعطاه صبراً دون جيش من البشر

إن التأكيد على إعداد المجاهدين وتربيتهم على هذا الخلق الكريم نابع من أن المجاهد في طريق الجهاد الطويل قد يتعرض لبعض الأذى والأخطاء من إخوانه المشاركين له في درب الجهاد، أو من إخوانه المسلمين الذين قد يؤذونه بكلام أو تخذيل ؛ فإن لم يكن على مستوى من التربية الأخلاقية – ولا سيما خلق الحلم والعفو والصفح – فإنه قد لا يصبر على ما يرتكب في حقه من الأخطاء، وقد يتصرف بما لا يليق بالمسلم فضلاً عن المجاهد الذي يفترض فيه أنه قد استعلى على حظوظ نفسه وأغراضها، وجعل غضبه وانتقامه لله عز وجل وحده لا شريك له·

وقال الإمام الشافعي:

---

[327]--"في ظلال القرآن": (459/1).

أحب من الإخوان كل مواتي وكل غضيض الطرف عن عثراتي

يوافقني في كل أمر أريده ويحفظني حيا وبعد مماتي

فمن لي بهذا ليت أني أصبته لقاسمته مالي من الحسنات

تصفحت إخواني فكان أقلهم على كثرة الإخوان أهل ثقات

وان التحمل والعفو وكظم الغيظ يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس، وتعويدها على الصبر والإخلاص لله وحده؛ لأن الإخلاص من أسباب سلامة الصدر وخلو القلب من الغل والحقد؛ قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يغل عليهن قلب مسلم – وذكر منها – إخلاص العمل لله)[328].

كما أن في التربية الصوفية وعند رجالاتها ذوي الحلم والأناة تركيز كبير على هذه الصفات ليكون لها الأثر الكبير في شخصية الفرد.

العلامة الشريف الجرجاني في (التعريفات):

التصوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وهو تصفية القلب عن مواقف البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله تعلى على الحقيقة، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشريعة.

328-- مسند أحمد: (183/5)، والترغيب والترهيب: (23/1)، وعزاه الألباني إلى الشافعي في مسنده وصحح إسناده، انظر "مشكاة المصابيح" الحديث (229).

نعم إن المتصوف كما عرفه العلماء يكون في كل وقت بما هو أولى به في ذلك الوقت، بمعنى أنه إذا كان في وقت الصلاة كان مصليا وإن كان في وقت الذكر كان ذاكرا وإن كان في وقت الجهاد كان مجاهدا لذلك قيل الصوفي مخلص لموقفه.كل دلك لأنه روض نفسه وأخضعها لارادته .

يقول الشاعر :

ومهما زيَّنت قُبح الخطايا

وبثّت غيَّها في كل هجسِ

سأبقى ما حييتُ أقول كلا

لما تُمليه من زللٍ ورجس

وكما أن للإخلاص أثره في نيل رضا الله سبحانه وما أعده للمجاهدين الصادقين، فإن له أثرًا كذلك في الثبات أمام الأعداء لقوله تعالى: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) [329]، وإذا تمكن الإخلاص من

القلوب أثمر التضحية والشجاعة في سبيل الله عز وجل، وأثمر الصبر، والزهد في الدنيا ومتاعها الزائل، وتوحد الهم في إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دين الله تعالى؛ وبذلك ترتفع الهمة ويعلو المقصد ويوجه إلى الله تعالى والدار الآخرة وما أعد الله فيها لعباده المجاهدين من الرضوان والنعيم ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

[329]--(الفتح: من الآية18)

والإخلاص من أشرف أعمال القلوب التي يجب أن يعتنى بها في جميع الأعمال، ولا سيما في الإعداد للجهاد في سبيل الله تعالى؛ وذلك لما يتعرض له المجاهد من فتنة الشهرة، أو حب المدح، والثناء عليه بالشجاعة والبذل والتضحية:يقول شاعر الرسول:

تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك إلها انت أعلى وأمجد

لك الخلق والنعماء والأمر كله فإياك نستهدي وإياك نعبد

ولذلك لا يكاد يذكر الجهاد في الكتاب والسنة إلا ويذكر بعده "في سبيل الله" وكذلك من يقتل في القتال مع الكفار لا يسمى شهيدًا إلا إذا كان في سبيل الله. قال تعالى: **(وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ)**[330]. أي الذين أخلصوا في جهادهم لله تعالى ولم يريدوا شيئًا من حظوظ هذه الدنيا الفانية.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله: "ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء؟ إنهم أولئك الذين يقتلون "في سبيل الله" .. في سبيل الله وحده، دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله. في سبيل هذا الحق الذي أنزله.

في سبيل المنهج الذي شرعه. في سبيل هذا الدين الذي اختاره .. في هذا السبيل وحده، لا في أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر، ولا شركة مع هدف أو شعار. وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث، حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر .. غير الله ..

330- (البقرة:154).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله: رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضًا من الدنيا؟ فقال: (لا أجر له) فأعاد عليه ثلاثًا· كل ذلك يقول: (لا أجر له)[331] أخرجه أبو داود·

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تضمن الله تعالى لمن خرج في سبيله؛ لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة· والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم وريحه مسك· والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني· والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل)[332].

فهؤلاء هم الشهداء· هؤلاء الذين يخرجون في سبيل الله، لا يخرجهم إلا جهاد في سبيله، وإيمان به، وتصديق برسله·

ولقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتى فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته في مجال الجهاد: عن عبدالرحمن بن أبي عقبة عن أبيه – وكان مولى من أهل فارس —

قال: شهدت مع النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا، فضربت رجلاً من المشركين،

فقلت: خذها وأنا الغلام الفارسي· فالتفت إليّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (هلا قلت: وأنا الغلام الأنصاري؟ إن ابن أخت القوم منهم، وإن مولى القوم منهم)[333].

---

[331]- أبو داود (2516) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم: (2196).
113مسلم (1876).

[333] - أبو داود (5123)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (1096).

فقد كره له " أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي صلى الله عليه وسلم، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين· وهذا هو الجهاد، وفيه وحده تكون الشهادة وتكون الحياة للشهداء"[334].

ويقول في موطن آخر – رحمه الله –: "إنه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده· والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية· ويقاتل رياء· أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[335].

وليس هنالك من راية أخرى، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فيحق له وعد الله بالجنة، إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف·

أصون الحق لا أخشى ان أبصرت خلفه عنقي تدق

ولست بجازع ما دام قلبي يردد : إن وعد الله حق

"لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا؛ العليا في النفس والضمير، والعليا في الخلق والسلوك، والعليا في الأوضاع والنظم، والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة· وما عدا هذا فليس لله ولكن للشيطان·وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد·

---

[334]-- في ظلال القرآن 144/1

[335]--"المفردات": (ص99).

وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام· وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف"[336].

ومن ثمار الإخلاص في الدنيا أنه سبب من الأسباب القوية في سلامة القلوب، ووحدة الصف، وجمع الكلمة وائتلاف القلوب وقطع الطريق على من يريد التحريش بين المسلمين وإثارة الفرقة بينهم؛

لأن من أعظم أسباب الفرقة والاختلاف والتناحر بين الدعاة والمجاهدين بعضهم مع بعض ضعف الإخلاص، وتغلب الهوى وحظوظ النفس، فإذا حصل الإعداد القوي والتربية الجادة على الإخلاص قبل الجهاد وأثناءه فإن هذا من شأنه أن يقضي على الفرقة والتناحر.

وأن يوحد الصف ويجمع الكلمة على قتال الأعداء، وبهذا يُقضى على سبب خطير من أسباب الفشل والهزيمة؛ قال تعالى: **(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)** .[337]

وإن مما يقوي الإخلاص وينميه: صدق المحبة لله تعالى – والتي سبق ذكرها – وصدق التوحيد والعبودية لله تعالى واليقين الصادق باليوم الآخر، والقراءة في سير الصالحين المخلصين وكيف كان حرصهم على تحقيق الإخلاص في جميع أعمالهم، وخوفهم من الرياء والنفاق، وإخفاؤهم لأعمالهم، وحفظهم لها من كل ما يكون سببًا في إحباطها وإبطالها؛ فإن ذلك مما يشوق النفوس إلى أعمالهم واللحوق بهم·

كما أن وجود القدوات المخلصة التي تعلم وتربي وتوجه يعد من الأسباب المهمة في إعداد المجاهدين المخلصين، كما أن من أعظم أسباب الإخلاص الزهد في الدنيا

---

[336]--"في ظلال القرآن": (3288/6).

[337]--(الأنفال: من الآية46) .

والتخفف منها، والإكثار من ذكر الموت، والتطلع إلى الدار الآخرة، والطمع في رضوان الله تعالى ونعيمه فيها، والخوف من سخطه وعذابه· وهذا ما سيدور الكلام حوله في الفقرة التالية من أعمال القلوب·

(أ) الكرم والجود والبذل في سبيل الله.

قال أحدهم:

أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً *** ولا تطع في سبيل الجود عذالاً

من جاد جاد عليه الله واستترت *** عيوبه وكفى بالجود سربالاً

وهذه الأخلاق تنشأ من الشجاعة لأنها تحمل صاحبها على البذل النفس والروح التي هي أعز وأغلى ما يملك الإنسان في سبيل الله عز وجل· قال الشاعر:

جودوا بالنفس إن ضنَّ البخيل بها *** والجود بالنفس أغلى غاية الجود

ولذلك فإن البخيل في العادة لا تجده إلا جبانًا خوارًا، والبخل والجبن قرينان، كما أن الكرم والشجاعة قرينان، وقد قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين الجبن والبخل في دعائه حيث قال: (اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن)[338].

ولذلك يحث الصوفية على مجاهدة النفس على بذل ما تحبه، وتعويدها على الجود والإيثار وحب الخير للمسلمين، وبذل الجاه لهم بالمساعدة والشفاعة والسعي في حوائجهم· وهذا أمر يحتاجه المجاهد في سبيل الله لأن بيئة الجهاد بيئة بذل فكانت بالضرورة بيئة إيثار وتكافل وتعاون بين المجاهدين، وأجواء الجهاد والمجاهدين لا مكان فيها لأهل الأثرة والشح والأنانية والبخل·

[338]-- البخاري: (6370).

وقد أعد الله لعباده المجاهدين في الآخرة الكثير من النعيم والرضوان، ومما يساعد على ذلك أيضًا العيش في بيئات أهل العلم والزهادة والجهاد؛ لأن في رؤية القدوات من أهل السخاء والشجاعة والجود وطول صحبتهم أثرًا في التربية على هذا الخلق الكريم وغيره من الأخلاق، كما أن فيها التواصي والتذكير والحث على هذه الأخلاق.

كما أن في قراءة سير أهل الشجاعة والجود والكرم من سلف هذه الأمة وعلى رأسها سيرة سيد المجاهدين وبطل الأبطال وأكرم الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم – دافعًا ومحفزًا للاقتداء بهم واتباع آثارهم.

(ب) العفو والصفح وكظم الغيظ :

وردت في الكتاب والسنة نصوص كثيرة تحث على هذا الخلق الكريم وتمدح أهله وتعدهم بالثواب الجزيل في الآخرة. قال الله تعالى: **(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)**[339].

وبالتأمل في هذه الآية نجد أن الله عز وجل قد ذكر قبلها آيات في غزوة أحد والاستعداد لها؛ وذلك في قوله: **(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**[340]. وأرى أن تفسير السيد قطب لايختلف مع الصوفية حين يقول:"... وإذن فهذه التوجيهات الشاملة ليست بمعزل عن المعركة؛ فالنفس لا تنتصر في المعركة

[339]--(آل عمران:133-134)

[340]--(آل عمران:121)

الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية، والذين تولوا يوم التقى الجمعان في "أحد" إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب· والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب، والالتجاء إلى الله،

والالتصاق بركنه الركين· والتطهر من الذنوب إذن والالتصاق بالله والرجوع إلى كنفه من عدة النصر، وليست بمعزل عن الميدان! واطراح النظام الربوي إلى النظام التعاوني من عدة النصر؛ والمجتمع التعاوني أقرب إلى النصر؛ من المجتمع الربوي· وكظم الغيظ والعفو عن الناس من عدة النصر، فالسيطرة على النفس قوة من قوى المعركة، والتضامن والتواد في المجتمع المتسامح قوة ذات فاعلية كذلك"[341].

والأصل في العفو وكظم الغيظ وكف الأذى هو خلق الصبر قال الشاعر :

وماالصبرإلا نعمة من الهنا	يمن بها في النائبات لمن شكر
فكم من قوي والبلايا تحفه	يجانبه التوفيق دوماً فما صبر
وكم من ضعيف أعظم الله أجره	فأعطاه صبراً دون جيش من البشر

إن التأكيد على إعداد المجاهدين وتربيتهم على هذا الخلق الكريم نابع من أن المجاهد في طريق الجهاد الطويل قد يتعرض لبعض الأذى والأخطاء من إخوانه المشاركين له في درب الجهاد، أو من إخوانه المسلمين الذين قد يؤذونه بكلام أو تخذيل ؛ فإن لم يكن على مستوى من التربية الأخلاقية – ولا سيما خلق الحلم والعفو والصفح – فإنه قد لا يصبر

[341]--"في ظلال القرآن": (459/1).

على ما يرتكب في حقه من الأخطاء، وقد يتصرف بما لا يليق بالمسلم فضلاً عن المجاهد الذي يفترض فيه أنه قد استعلى على حظوظ نفسه وأغراضها، وجعل غضبه وانتقامه لله عز وجل وحده لا شريك له.

وقال الإمام الشافعي:

أحب من الإخوان كل مواتي وكل غضيض الطرف عن عثراتي

يوافقني في كل أمر أريده ويحفظني حيا وبعد مماتي

فمن لي بهذا ليت أني أصبته لقاسمته مالي من الحسنات

تصفحت إخواني فكان أقلهم على كثرة الإخوان أهل ثقات

وان التحمل والعفو وكظم الغيظ يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس، وتعويدها على الصبر والإخلاص لله وحده؛ لأن الإخلاص من أسباب سلامة الصدر وخلو القلب من الغل والحقد؛ قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يغل عليهن قلب مسلم – وذكر منها – إخلاص العمل لله)[342].

كما أن في التربية الصوفية وعند رجالاتها ذوي الحلم والأناة تركيز كبير على هذه الصفات ليكون لها الأثر الكبير في شخصية الفرد.

العلامة الشريف الجرجاني في (التعريفات):

التصوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وهو تصفية القلب عن مواقف البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوي النفسانية،

[342]-- مسند أحمد: (183/5)، والترغيب والترهيب: (23/1)، وعزاه الألباني إلى الشافعي في مسنده وصحح إسناده، انظر "مشكاة المصابيح" الحديث (229).

ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله تعلى على الحقيقة، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشريعة.

الفصل الثالث : جمالية المعنى الجهادي

1/ جمالية اللفظ
2 /جمالية الصورة

1/ جمالية اللفظ

مارس المتصوف سلوكه المعرفي، إزاء اللغة والكتابة، وكأنه بدائي، حيث لاشيء في الكون سوى "الحقيقة المحمدية"، حسب تعبير ابن عربي،إذ يقول: «بدء الخلق هباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية»343، فالخلق في زعمه بدأ بالهباء أي الذرات وأول موجود وجد بذات قائمة محدودة هي ذات الرسول التي سماها الحقيقة المحمدية ثم خلق منه القلم والحجب السبعين وملائكتها ثم خلق اللوح .

وعليه كان لا بد له من أن يعبث بكل أنظمة اللغة والكتابة منذ تكوينها الأول، فعبث بدءاً بمفهوم "الكلمة"، بوصفها النظام الأول للخلق. 344

الكتابة هي الحل الوحيد لإعادة التوازن إلى العالم345. وها هو ابن عربي يقرر بأن «الخلق كتابةٌ» ولا كتابة ما لم يكتب الإنسان نفسه، عليه ألا يدع الآخرين يكتبونه لأن «الذي كتب بيده يدخل في الكشف، والتفسير والبسط والسطح وينكشف الحرف»؛ فأن تكتب يعني أن تخلق

أن تدخل مناطق جديدة لتكشفها، أن تترك البعد اللغوي حراً ليستطيع القول. لذلك سيعيد الصوفي فرش العلامات المبثوثة في الكون، لتدل على لغته من نافذة، ولتملأ

344-- فتعامل معها ابن عربي عبر مستويات متعددة تختلف حسب سياقها وشكل ورودها: مفردة أم جمعاً، نكرة أم معرفة... وفي كل مرة يختلف معناها. ينبني على ذلك نظام معرفي كامل، سرعان ما يختل، إذا ما تم استخدام "الكلمة" خارج تلك المستويات، ما يعني أن النص الصوفي يُقرأ ويُؤوَّل ضمن نظام إشاري خاص، وبوصفه نصاً لغوياً صوفياً، ينطلق من/ ويعود إلى اللغة، وفي ذلك يتقشر الوجود عن نفسه، إذ ليس الوجود، صوفياً، سوى علامات مرئية صامتة، وفق تعبير لميشيل فوكو 344 ، وقد أخذ الصوفي على عاتقه مهمة إيقاظها من جديد .ليس ثمة وجود (وجودي) للصوفي سوى اللغة، لقد وضع بين أقواس التاريخ الذي صاغته الشريعة، وفرغ نفسه لصياغة تاريخ الحقيقة. الكتابة واجبه بالقدر نفسه الذي هو وجوده، وعليه أن يعبث بالعلامات التي هي أمامه، كي يجعلها، إن كانت صامتة تتكلم، وإن كانت متكلمة، بفعل ما تراكم عليها من تقويل، تتكلم كلاماً آخر ليقرأها في أفق غايته ووجوده، ويكتبها بـ/ أو في جسده. فالأوراق التي أمامه بُعده الآخر، إنها هي التي تحفظ جسده اللغوي، وسوف يثبت من دون توقف أنه من ذات الطبيعة: طبيعة الأوراق التي أمامه، وطبيعة الموجودات، لذلك لم يتوقف ابن عربي عن الكتابة، إذ دون ذلك سيختل الوجود، من حيث أن النص الصوفي، كما يمكن أن يزعم المتصوفة، هو الحقل الأخير الذي سيملأ الفراغ بين اللغة والأشياء بعد أن اضطربت العلاقة بينهما وتشوشت.

345-- قال فيما جمعها الصوفي الكبير عبدالوهاب الشعراني من ثنايا كتاب (الفتوحات المكية (وضمنها عبدالوهاب في كتاب أسماه اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الكبائر: في الباب السادس والستين وثلاثمائة من: "جميع ما أكتبه في تصانيفي ليس هو عن فكر ولا روية وإنما هو عن نفث في روعي من ملك الإلهام"

الفراغات التي بوصف الصوفي كائناً من لغة، فإنه يدخل على القرآن الكريم، ويؤوله انطلاقاً من لغته. لذلك ليس غريباً أن يستخدم ابن عربي الآيات القرآنية عن طريق مزجها ببعض وتفسير بعضها ببعض، وأن يستخدم جزءاً من آية ويكملها بجزء من آية أخرى، دون أن يشير أين تنتهي آية وأين تبدأ أخرى، وأكثر: فهو لا يفصل بين آية ما وبين كلامه هو. عندما سئل عن ذلك، قال إنه ليس تحت حكم نفسه فيما يتناول من أفكار. حقاً، إنه ليس تحت حكم نفسه، بل تحت حكم منطقه الذاتي وآلياته الخاصة، بوصفه، هو نفسه، لغة: يبحث في الأشياء عمَّ

يشبهه، ويبحث في النص الديني عمَّ يشبهه، وفي هذا وذاك، يبحث عمَّ يؤكد منطقه الذاتي. لقد تحول كائن التصوف إلى مجنون اللغة.

تصادم المتلقي مع الصوفي:

يحاول الصوفية في اثناء ابداعه الشعري تقديم الانفعالية التي لا وجود موضوعيا لها الا بعد تجسيدها في تشكيل لغوي، ومن ثم فان تذوقها وفحص عناصرها ومكوناتها يتم عبر هذا الوسيط اللغوي الذي يتميز بخصائصه الأسلوبية.

أما ما يتم في ذهن الصوفي وقلبه في أثناء الإبداع فهو أمر لا يمكن للناقد تتبعه ما دام العمل الإبداعي لم يتشكل لغويا، وهو الآخر له خصوصيته التي يعني بها غير النقاد.

ويبذل الصوفية جهودا مضنية من اجل أن يكون النص الأدبي محيطا بالتجربة الانفعالية ومعبرا عنها وشاملا لجوانبها المتعددة، غير أن هذا لا يتأتى- في الحقيقة- إذ تتحول اللغة إلى معيق يمنع الصوفي من التعبير عن التجربة الانفعالية بما تنطوي عليه من كلية وشمول، ولذلك نلحظ شكاوى الصوفية التي تؤكد أن هناك عائقا يمنع ما يريدون التعبير عنه، وما يسعون

إلى توصيله بحيث تكون التجربة واضحة وجلية وكاملة، وعندما يحاول الاديب، يتشتت الوضوح ويتبدد التكامل.

إن تجربة الصوفي الانفعالية تجربة ذات طبيعة كلية تامة قبل تشكيلها اللغوي، يحس بها ويعيها ويسيطر عليها، وحين يعمد إلى تقديمها من خلال سياق (زماني/ لغوي) يضطر إلى إخضاع تجربته الانفعالية الكلية الشاملة إلى المحدد والجزئي، أي إخضاع الكلي إلى ألزماني، لان التشكيل اللغوي لا يتم وجوده إلا بترتيب الكلمات وانتظامها بكيفية معينة، فهي خاضعة لقوانين اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ويحاول الصوفي التحرك في إطار ماسبق خلقه، أي انه يحاول تقديم تجربته التي تتسم بكونها مطلقة وكلية وفردية من خلال جبرية اللغة، أي من خلال جبرية مفردات وتراكيب لم يخلقها الصوفي ، وقوانين لم يسهم في تأسيسها أو توليدها، ولذلك يخضع الكلي والمطلق للمحدد والجزئي.

وفي ضوء هذا فان التشكيل اللغوي يظل عاجزا عن تقديم ما يروم الشاعر تقديمه، ولكنه مضطر على قبوله، لأنه ليس في أمكانه طريقة أخرى سوى تقديم هذه الصورة المعبرة عن عالمه هو، ولذلك يحس الصوفي أن هناك بونا بين تجربته الانفعالية وبين ما يقدمه في النص الصوفي بوصفه معطى يعبر عن

هذه التجربة، وعلى هذا الأساس فان النص يظل كيانا غير أمين للتعبير تماما عن تجارب الأدباء.

إن الصوفي في أثناء خلقه النص يتفاعل مع المفردات بكيفيات خاصة، أقول مجازا يتفاعل، ليس بوصفها أحجارا، وإنما بوصفها مخلوقات، وكأنه يحاول إعادة خلقها من جديد، ومن ثم تتلون المفردات والتراكيب في ضوء:و-رؤيته، و- تجربته، وان المفردة تشع وتوحي بإيحاءات خاصة لدى الكاتب، ولا يمكن لهذه الإيحاءات أن تتماثل أبدا مع إنسان آخر، بسبب المخزون النفسي - وهو مخزون فردي خاص قطعا- ولما يتصل بهذا المخزون من رواسب فردية يتصل جزء كبير منها باللاشعور، إن حدثا واحدا إمام شخصين يترك آثارا متفاوتة فيهما، بسبب كيفية تفاعلهما معه من ناحية، وبسبب تفاوت العالمين الداخليين لهما من ناحية أخرى، ويرجع ذلك إلى تلك الكوامن القارة في أعماق كل واحد منهما، وهي التي تتفاعل مع الحدث، ومن ثم في التعبيرعنه.

ان المتلقي يتفاعل مع التشكيل اللغوي، وليس مع تجربة الشاعر الانفعالية، وبما ان النص ليس امينا في نقل هذه التجربة يحدث اول سوء فهم لتجربة الشاعر بسبب النص، اي بسبب التشكيل اللغوي، واذا كان المبدع له خصوصيته في تجربته وكيفية ابداعه فان المتلقي هو الاخر له خصوصيته

الفردية وله كوامنه الخاصة القارة في اعماقه، وحين يلتقي بالنص فانه يتفاعل بكيفية خاصة معه، ان اثر النص يتشكل ويتلون بحسب المثيرات اللغوية التي تترك ايحاءات خاصة لدى المتلقي ومن ثم تخلق تجربة انفعالية جديدة لديه، وهي قطعا ليست التجربة الانفعالية للاديب ان المتلقي لايتفاعل مع تجربة الاديب الانفعالية وانما يتفاعل مع وسيط لغوي غير امين في نقل تجربة الاديب، واكثر من هذا ان المفردات والتراكيب عند الاديب في هذا النص توحي بايحاءات خاصة ولذلك اختارها هو، ولكنها عند المتلقي توحي بايحاءات اخرى خاصة به، لايمكنها ان تكون هي باي حال من الاحوال ولذلك فان تلقي التجربة الانفعالية الجديدة يبتعد مرتين عن اصل التجربة الانفعالية للاديب، ان كل قراءة للنص المقروء هي فهم جديد له ولذلك فنحن لسنا ازاء نص واحد فيزيقيا، ولكننا ازاء اعداد لا حصر لها من النصوص المقروءة لان القراءة تحول الوجود الفيزيقي الى نص اخر ليس هو الوجود الفيزيقي –قطعا –وليس هو تجربة الاديب الانفعالية وانما هي تجربة جديدة للمتلقي اثارها النص ومن ثم تتفاوت طبيعة النص بتفاوت المتلقين وبتعددهم وتكرارهم. عندما اتهم ابن عربي بأنه يتغزل بكائن مادي غزلاً حسياً، شكّل هذا مناسبة ذهبية ليستجيب فيه الشاعر لمجنون اللغة، فقام بشرح ديوانه "ترجمان الأشواق": موضوع التهمة، على نحو أثبت فيه أن النص الصوفي اكتشف طاقات جديدة للكتابة، وأن اللغة،

بانفصالها التاريخي عن الشيء، لم تفقد الأمل في انبعاث جديد الرمز عند الصوفية.

"يرى (تودوروف) أن الفرق الأساس بين الخطاب والرمز لا يكمن في الطابع اللغوي، وإنما يبرز من كون المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي يوجدان معًا في الخطاب، بينما لا يوجد سوى أحدهما في الاستثارة الرمزية (Evocation symbolique)، ومن ثمة فالمتلقي يفهم الخطاب غير أنه يقوم بتأويل الرموز"[346].

[346]- تودوروف، نقلاً عن فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب 2003، ص 57.

وهذه الصلة بين الرمزية والتأويل هي التي تحتم على كل قارئ للشعر الصوفي أن يتوسل في الاقتراب منه منهج التأويل، "ويغدو الرمزي مدخلاً مركزيًا للضرورة التأويلية عبر فعل التلقي نفسه ... غير أن هذه الضرورة التأويلية ليس يحددها الإنتاج النصي وحده، وإنما تنبع أيضًا من رغبة المتلقي وإرادته، إن التأويل الرمزي يغدو استراتيجيةً تأويلية منطلقها المتلقي وموقعها النص"(347).

من هنا يفرض التأويل نفسه أداةً لقراءة الشعر الصوفي (الرمزي)، ويصبح بديلاً للتفسير الذي هو –كما يقول السيوطي–: "من الفسر وهو البيان والكشف، ويقال هو مقلوب السفرُ، تقول أسفرَ الصبح إذا أضاء، وقيل هو مأخوذ من التفْسِرة، وهي اسم لما يعرف الطبيب به المريض [أما التأويل] أصله من الأول، وهو الرجوع فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني، وقيل من الإيالة وهي السياسة كأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى في موضعه"(348).

التأويل إذن ذو منحى تأصيلي (إرجاع المعنى إلى أصله) وهو ما ينطبق على القراءة الصوفية التي تتجسد من خلال صرف الظاهر واعتماد الباطن لفهم النصوص وفق دلالتها الأصلية. وفي هذا المضمار يقول نصر حامد أبو زيد: "إذا كانت كلمة تأويل تعني الرجوع إلى الأصل، وتعني أيضا الوصول إلى الغاية والعاقبة، فإن الذي يجمع بين الدلالتين هو دلالة الصيغة الصرفية (تفعيل) على الحركة، وهي دلالة أغفلها اللغويون في تحليلهم المعجمي، لذلك يمكن القول إن التأويل حركة بالشيء أو الظاهر إما باتجاه (الأصل)

أو في اتجاه (الغاية) و(العاقبة) بالرعاية السياسية، لكن هذه الحركة ليست مادية بل هي حركة ذهنية عقلية في إدراك الظواهر"(349).

347- فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، ص 57.
348- أنظر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ج2، 1973، ص 173
349- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، بيروت 1990، ص 230.

يتخذ التأويل إذن مشروعيته في الشعر الصوفي انطلاقًا من أنه يتخذ شكلين: ظاهري وباطني، وهذا يفرض علينا تبني التأويل للكشف عن هذا المعنى الباطني، ويغدو التأويل فعلاً شاملاً يستعين بمختلف المعطيات اللغوية والفكرية للكشف عن دلالة النص.

ويميز الدكتور (محمد عابد الجابري) بين عدة ضروب من القراءة يهمنا منها الضرب الأخير الذي يسميه (القراءة التأويلية) أو القراءة ذات البعدين، وهي قراءة تعي منذ اللحظة الأولى كونها تأويلاً، فلا تتوقف عند حدود التلقي المباشر، بل تريد أن تساهم بوعيٍ في إنتاج وجهة النظر التي يحملها أو يتحملها الخطاب(350)، فالمتلقي إذن ينبغي له أن يستضيف النص، ويعقد معه صلاةٍ حميمة ليتعاونا معًا على إنجاز مهمة الفهم والتأويل، ويعني هذا

أن المتلقي لا يدخل عالم النص مجردًا من النوايا، وإنما يدخله مزودًا بأفكاره ونواياه الخاصة، وبذلك يستطيع فهم النص "أحسن مما فهمه مؤلفه"351 وهذا

يعني أن العلاقة بين القارئ والنص لا تسير في اتجاه واحد فقط، وإنما هي علاقة تسير في اتجاهين متبادلين (من القارئ إلى النص) و(من النص إلى القارئ).

وادا نطرنا الى المواضيع التي أشتهر بها الصوفية، المديح النبوي الدي امتاز بصدق العاطفة وحرارة الشعور،وفرط الوجد وشدة التعلق بالرسول ﷺفكان ترجمة صادقة لما يعتمد في نفس المحب من وجد وعشق وهيام كما كان وسيلة للصوفية الجزائريين لتشجيع العامة على الجهاد ضد المستعمر ، ودلك بابراز غزواته وبطولاته صلى الله عليه وسلم فنجد قصيدة حسني بن الأخضر الجاوي352 فيها سيرة الرسول بإيجاز و فيها إشارات إلى حياته وغزواته وكل ما يتصل به، في أسلوب قوى متين ، زادته هذه الموسيقي القوية

350- أنظر محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت 1985، ص 09
351- نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، ص 22
352- الشعر الديني الجزائري الحديث د عبد الله الركيبي ص68

بسبب بحر« البسيط» بل وزادته تلك القافية المفتوحة التي اتخذت من هذا الجمع المؤنث، الأمر يجعل النطق بالبيت فيه امتداد للصوت بلا توقف

جمالية اللفظ جمالية المعنى الجهادي الفصل الثالث

أو إحساس بالحد من النفس، كما هو الشأن في القافية الثقيلة مثل قافية «الدال» ، أو قافية الحروف «القلقلة » الثقيلة .

على أن القصيدة تمتاز بمعان وصيغ جيدة عبر فيها الشاعر عن انتصارات الرسول (ص) التي كانت قد دوت في الآفاق في حروبه ضد المشتركين في «بدر » وعلى اليهود في « خيبر»:

نَصَرْتُ بِالرُعْبِ شَهْرا فَلَكُمْ خَفَقَتْ في الخَافِقِينَ لَكُمْ بِالنَّصرِ رَايَاتُ

وبِالصِّبا وَبِأَمْلاَكٍ مُقَاتِلَةٍ عَلَى خُيُولٍ لَهُمْ فِي الحَرْبِ سِيمَاتُ

وَيَومَ «بَدْرٍ» أَشَرْتِ بِمُصَارِعٍ 353مَنْ مَاتُوا بِأَسْمَائِهِمْ فَالقَوْمُ أَمْوَاتُ

حتى يصل إلى«خَيْبَر» فيحدث عن خرابها بسبب تآمر أهلها على الرسول(ص):

وَخَيْبَر خُرِّبَتْ، لما نَزَلْتَ بِهَا لَمْ تُغْنِ عَنْهَا حُصُونُهَا المَنِيعَاتُ354

وهكذا نجد الشاعر يربط بين أشياء كثيرة في القصيدة، وتتوارد عليه الأفكار فلا يركز على الموضوع الذي بدأ به في وصف«المدينة» والتشوق لها، وإنما يترق إلى موضوعات أخرى لها صلة به، وقد لا تكون صلة قوية، ولكنها صلة على كل حال لا تجعلنا ننسى الموضوع كله، لأنها مترابطة بعضها ببعض فالحديث عن المدينة يجر إلى الحديث عن الرسول وعن انتصاراته ومواقفه... وهكذا. نجد الشاعر يربط بين أشياء كثيرة في القصيدة، وتتوارد عليه الأفكار فلا يركز على الموضوع الذي بدأ به في وصف «المدينة»

353) أتى بجمع (مصرع) وهو غير معروف.
354) المصدر السابق ص 85.

والتشوق لها، وإنما يتطرق إلى موضوعات أخرى لها صلة بالجهاد،والحديث عن الرسول وعن انتصاراته ومواقفه... وهكذا .

وقد أوجز الشاعر هذه «المعجزات» في أبيات قليلة ولكنه يعترف بأنها لا حصر لها، وأنه مهما قال فيها فلن يمكنه القريض من ذلك.

وَمُعْجِزَاتُكَ جَلَّتْ أَنْ يُحاطَ بِهَا * فَكَيْفَ يَحْصُرُهَا بِالنَّظْمِ أَبْيَاتُ355

وهناك قصائد لشعراء مجزوا بين كل هذا المدح والتشوق ووصفوا العلامات والغزوات وأسماء الرسول، وهي من المطولات وفيها تقليد

جمالية اللفظ جمالية المعنى الجهادي الفصل الثالث

للأقدمين في هذا المضمار، وخاصة «البردة» للبوصيرى مثل قصيدة : «النظم الذي لا تضيع قوافيه» وهي من القصائد الطوال التي تؤرخ لحياة الرسول من مولده وجهاده حتى وفاته و فيها روح ملحمية. ومنها أيضا قصيدة «نزهة اللبيب في محاسن الحبيب» للشاعر « بلقاسم بن منيع» التي قالت عنها«الشهاب» : «منظومة غراء وروضة غناء في الأسماء النبوية والمعجزات المصطوفية بكلام بليغ و أسلوب بديع جمعت بين الرصانة العلمية والعذوبة الشعرية»356.

ولأنها من هذه القصائد فقد كان لا بد أن تؤخرها لما لها من صفة خاصة من حيث أنها تقليد لهذه المطولات في بحرها وقافيتها وموضوعها. فهي لا تخرج عما تعرضنا له في هذا الشأن من حيث المعاني، ولكنها تمتاز بروح(الملحمة) اذ تزيد على الأربعمائة بيت من (البحر البسيط) حوت كثيرا عن هذا الموضوع الذي عنا به الشعراء عناية فائقة. وهي إن كانت على غرار قصيدة (البوصري) غير أنها لا تبدأ بالغزل مثلها، بل تبدأ مباشرة بتوجيه الخطاب إلى الله والصلاة على رسوله، وهو تقليد شائع في هذه

355) المصدر السابق ص 80 ،

356) القصيدة لشاعر لم يذكر اسمه ونشرت بجريدة"الصديق" 12أغسطس 1960.

المدائح في الشعر الجزائري الحديث. ومن ثمة أصبحت من الأمور التي يلتجئ إليها الشاعر في افتتاح قصائده كما يلتجئ إليها الفضل العادي في الأوقات المختلفة. وهذه الصلاة تنفس عن مكروب وتخفف من الآلام والمصائب وهي من الأساليب المتعارف عليها في مدح الرسول والصلاة عليه فنظرة الدين فيها واضحة:

يَا رَبُّ صَلِّ عَلَىَ مَنْ بِاسْمِهِ العِلْمُ تَنْحَلُّ عَنَّا عَوَارِضُ مِنَ اللُّمَمِ[357]

ثم يدخل الشعر في مدح الرسول بأوصاف كالتي سبق مثلها في قصائد هذا النهج. ويكرر الفكرة التي أكدها الشعراء من قبله وهي أن الرسول(ص)قد صلى عليه الله وكل الخلق من قبل أن يولد، وأن هذه الصلاة كانت سنة لمن يريد أن يتقرب بها الله ،وهي فكرة صوفية أيضا. فتفرض الرسول(ص) بهذه الصفة من بين الأنبياء جعله إمامهم كما جعله وسيلة المتقربين إلى الله :

فَرْدُ العِنَايَةِ مَنِ قَدْ حَازَ فِي أَزَلٍ صَلاَةَ خَالِقِهِ وَالخَلْقُ فِي العَدَمِ[358]

والشاعر ينبه الغافل الذي لم ينتبه إلى هذا، ويضرب له المثل مؤكدا بأن شرف الرسول(ص) ذكر في القران كما سجل في القلم:

يَا غَافِلاً وَسَنَا، عَيْنُ سَنَاهُ سَمَا تَأْمَلَنَّ رَاشِدًا مَعَانِي الكَلِمُ[359]

ثم يعرض الشاعر إلى ميزة الرسول (ص) حين اقترن اسمه بذكر الله كما أن مدحه مشتقا من اسمه وأخلاقه، وهو مدح يكرره الشعراء في قصائدهم، فأخلاقه الفاضلة وشمائله الكريمة هي دليل على نبل نبوته، كما أنه أزال ضلال الشر والعناء . وكل هذا لا نجد فيه جديدا في هذه القصيد بالنسبة إلى مثيلاتها التي تحدثنا عنها سابقا، وإنما الجديد فيها

[357] القصيدة تبلغ لم تبلغ 406 بيتا وتقع في كتاب كامل، بلقاسم بن منيعط1 المطبعة الجزائرية الإسلامية،قسنطينة بالجزائر 1962.
[358] الشهاب 13 مايو 1962.
[359] اللمم: الذنوب الصغيرة وتطلق على الجنون. استخدام الجمع"عوارض" "الأعراض" وهو لا يستعمل بهذا المعنى بمعان أخرى أنظر المنجد.

هو الإشادة بنضاله وغزواته وانتصاراته على أعدائه وأعداء الدين. وقد عبر الشاعر عن هذا بأن وصف الرسول بأنه (نبي الملاحم) وهذا شيء جديد في المدائح النبوية في الشعر الجزائري الحديث، اذا أعطى الرسول(ص) صفة مختلفة عن صفاته التي ألف الشعراء مدحه بها، من جماله الجسماني والفساني الظاهر والباطن،

وان لم يغفل هذا تماما، وهذه الصفة توحي بأنه شجاع محارب ، وربما كان لظروف القصيدة، وقد ألفت في أوائل هذا القرن، حين احتدمت الصراعات بين الشعب و الاستعمار، ربما كان لهذه الظروف أثر في ذلك. فكأن الشاعر يريد أن يذكر الناس بأن النبوة المحمدية ليست من النوع الذي يدعو إلى الاستكانة و الخمول بل تدعو إلى الجهاد والدفاع عن الوطن وعدم الخنوع أو الاستكانة. ويضرب أمثلة بالملاحم التي خاضها الرسول(ص) في غزوته ضد كفار قريش،وكأنه يدعوا الناس إلى خوضها من جديد ومذكرا إياهم لهذا الماضي المجيد. وفيها صفة ملحمي للمعارك الطويلة مع أعداء الإسلام:

نَبِيُّ الملاَحِمِ، كَمْ قَدْ قَدَّ مِنْ بَطَل وَكَمْ مَيَادِينَ مثل المَوْجِ مُلْتَطِمِ
هُذَى حُنَيْنَ وَذِى بَدْرٍ وطائفها الفَتْحُ تَفْتَحُ أَعْيَانًا لِمَنْ يَشِم
دَعَا العَشِيرَةَ بِالفُرْقَانِ مُنْتَدِبًا لَكِنَّهَا مِن صَدَى الأَصَامِ فِي صَمَمِ
لَمْ تُغْنِهَا رُؤْيَةُ الأَنْوَارِ سَاطِعَةً اذْ حُجَّةُ الشَّمْسِ عِنْدَ العُمَى لَمَ تَقُمِ
حَتَى أَغَارَ عَلَى الأَقْوَامِ مَصْطَدِمًا بِكُلِّ صَارِمِ حَزْمٍ أى مُصْطَدِمِ
فَأَيْقَنُو أَنهم لم تُغْنِهِتمْ قُلَلٌ وَلَيْسَ تَعْصِمُهُمْ من أمر مُعْتَصِمِ
فَأَقْبلُوا زُمَراً وَأَمَّلُوا كَرَماً مُقْتَفي تبعًا جُنوُحَ مُسْتَلِمِ[360]

وبعد أن صورت القصيدة صدامها مع قريش في المعاركه الكبرى وغزواته لهم، بين كرم النبي وعفه بل انه لا ينتقم، وبذلك تظهر النبوة في الأخلاق التي لا تطغى عليها مشاعر الكراهية أو عواطف الحقد. فالنبي بعد انتصاره عفا عن المسيء:

[360]) المصدر السابق ص 5

ومن رجى المصطفى أو جاء معتذرا ينال ما يرتجى بغامر النعم

يا فوز من سبقت له العناية في أم الكتاب و أم المبرئ[361] القسم[362]

والقصيدة بعد أن نوهت بجهاد الرسول(ص) ضد قريش، انتقلت إلى جهاده ضد الروم والفرس، حتى تحقق انتصار الإسلام:

مستظهرا بينهم نور الهدى علما حتى على دينه مناسك الأمم

سل القياصر أو أكاسر العطب (يا ما) تحامت حول الباسل والنقم

هادته عن رغبة والقلب في رهب والعين في سهر والوجه ذو سهم[363]

في هذا تصوير لرسول وشجاعته وكأنه فارس من الأبطال الذين شهروا في الملاحم العربية كما أن فيهما يوحي بأنه بلغ القوة العظمى في الملك والسطوة حتى أن الملوك قدموا له الهدايا خشية قوته واتقاءه للبطش. وأن هذه الهدايا إنما هي دليل على الجبن، بينما الحر لا يركن للخور والضعف وإنما يركب سبيل الجد و العمل. وأن الرسول(ص) قهر الملوك والحكام وبطش بهم كل هدا ليشحد همم الجزائريين قصد محاربة الفرنسي الكافر الطاغي وتحرير البلاد. و كأن الشاعر أحس بأنه تجاوز الحد في هذا الوصف وابتعد عن المألوف في مدح الرسول (ص)، أو خشي أن يتهم بأنه جعل من الرسول(ص) ملكا أو حاكما قويا باطشا، فعاد إلى وصف أخلاقه وأنه عليه السلام، لم يفعل هذا عن تعسف، وإنما كان– كعادته– حليما يعفو عن الإساءة وان أخلاق الجاهلية من حمية وبغضاء وحسد قد ذهبت وأن أخلاقه دليل على الرسالة:

بالحلم أعفى رسوما للجفاوة من عرب، وبالعفو أعفى غير منتقم

داء الخمية والبغضاء والحسد بألفة الدين في إدبار منهزم

حتى زكت خلق منها على مهل أمست بها يهتدى فى واكف الظلم[364]

---

[361]) المصدر السابق ص 5.

[362]) قد الشيء: قطعه ، والمقصود أن النبي(ص) قد قضى على أبطال كثيرين من المشركين.

[363]) سقطت أداة التعريف من هذه الكلمة- ربما لخطأ مطبعي

[364].) المصدر السابق ص 7،ص 8.

على أن القصيدة بعد أن وصفت أخلاقه أنه لايحصيها عددا الحصى والدرر وما في سالك الأفلاك وهي سمة قديمه من سيمات المدح و الاكتار في لضرب الأمثلة وتعداد الأشياء في مدح الرسول أو الصلاة عليه، تعود الى الروح الملحمية لتصف النبي بأنه قضى على الشرك والطغيان بحد سفيه(الجبار)، قضى على الطغاة وعلى الظلم والظلال:

بحد صارم ذا– الجبار– قد قهرت خلف الفراعين من عاد ومن أرم

وهيكل الغير هدمت قواعده[365] وقد قضى حقبا والشمل ملتئم[366]

ويتكرر الموقف السابق، فيعود الشاعر لمدح الرسول وأخلاقه وأنه سيكون الشاهد على الناس يوم القيامة، وبذلك شرفت أمته التي هي وسط بين الأمم وشاهدة عليها، وفي هذا استيحاء للقران وتأثر به وبمعانيه:

والشاهد العادل والفرد المبرز في يوم التغابن عن توافر الأمم

رقيب شيعته في الورد والصدر ميقظ[367] الغافلين أو ذى الحلم

الله من شرف لأمة وسط بالمجتبى شهدت مقبولة الكلم[368]

ثم تأخذ القصيدة في وصف جمال الرسول(ص)، عكس القصائد السابقة التي تبدأ به أحيانا كثيرة، أو تبدأ بمظاهر نبوته أو بالشوق إليه و الاهتمام هنا، وفي مرحلة متأخرة، بعد اليقظة، كان منصبا على إنهاض الناس ودعوتهم إلى الاقتداء بسيرة الرسول العملية النضالية لا بأخلاقه وصفاته فحسب فإذا كانت أخلاقه مطلوبة وواجب الاقتداء بها، فان سيرته التي

كان بها مناحفة عن الدين وكفاحا من أجل الإسلام فان هذا أحق بأن يعطى الأولوية في الحديث عن الرسول ومدحه.

---

[365]) المصدر السابق ص8.
[366])المصدر السابق ص 9.
[367]) المصدر السابق ص 8، 9.
[368]) الشطر مكسور الوزن.

والقصيدة في مدحها لأخلاقه جماله وفيها صور وان كانت مألوفة في الشعر والمدائح ، فإنها–بالقياس الى متيلاتها في الشعر الجزائري الحديث–تعد من القصائد الجيدة، فهي لاتمدح الرسول(ص) بالأوصاف المباشرة والصفات تعددها دون أن تعمل الدوق والشعور ودون أدوات بلاغية، فانما تحاول أن تستخدم التشبيه والاستعارة في وصف الرسول: فالجمال له مثل جمال البدر، بل هو البدر المنير الذي يضيء لمن يهتدي به وكذلك جمال الطرف والحواجب والثغر:

اشراق بدر المحيا قد أضاء لنا زواهر ألمعت،زانت سما كرم

فالطرف ذو دعج والقوس ذو زجج والثغر ذو شنب عن خير مبتسم[369]

وتكرر القصيدة أوصاف نفسها التي رأيناها في وصف الخد، ولكن في شيء من الصور البارعة حيث يمتزج جمال الخلق والخلق وحيث تتعانق الصور الظاهرة مع الخفية، حتى يبدو الجلال ظاهرا للعيان:

أسيل حد موردجميل سنا والجيد دمية عاج نافح النسم

مليح شكل عظيم في جلالته في القرب والبعد عين الحب لم تحم

فمن سنا برقه اللماع في حلك ما دق جسما يرى كمنظر الجشم

لكنه من خيار العرب في حسب ومحتد قد حوى فرائد النظم[370]

وتستطرد القصيدة بعد ذلك، في وصف تقواه وعبادته وأنه أوثر بالقران دون غيره، وأن الله كان رفيقا، وتتكرر فكرة أن الرسول(ص) هو عين الوجود و سر الكون:

يا زين إنسان أعين الوجود به مناهج الرشد أضواء على علم[371]

---

[369]) المصدر السابق ص 9.

[370]) كتبت في الأصل : ميقص (الملاحظة أن الخلط يكثر بين هذين الحرفين)

[371]) يستوحي الشاعر في هذا البيت الآية القرآنية : " وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا". سورة أية 142

وتتكرر المعاني نفسها التي تجعل الرسول(ص) سيد الكونيين والعالمين، أنه صخرة لنجاة يوم أنة تدلهم الملمات وتتراكم الظلمات، فهو يستجير به من هذا اليوم يعمم فيه الخطب ويضطرب فيه الناس:

وعم خطب و أحدقت بها شرر وقد علا عرق عاقد اللحم

حتى يقول :

غوث القيامة إذ كان الخيار بها ما بين معتذر وبين محتشم

أعناق آمالها تالله صرفت حذار ما أحضرت فى الحط مرتسم372

وبالغم من أن الوصف خاص بيوم القيامة،فان فيه روح الملحمة التي تختلط فيها أوصاف الهول والاضطراب مثل وصف الحرب ورهبها ومعاركها، بل ان هذه الأوصاف نجدها حتى فى الحديث عن الرسول (ص) وسنته.

ومع ذلك فقد ابتكر الصوفيون ألفاظا جديدة لهم هي أقرب إلى المصطلحات العلمية التي لا يقف على معانيها إلا الواصلون منهم، على أن كتب التصوف، ومصادره الأولى على الأخص، تشرح كثيرا من معاني

هذه المصطلحات، وتحاول تقريبا للفهم، ومن مثل هذه المصطلحات: السفر، والطريق، والمقام، والحال، والأنس، والجلال، والوجد، والفناء، والبقاء، واليقين، وغير ذلك من المصطلحات31

[31]- ولابن عربي رسالة تسمى ب" اصطلاحات الصوفية" و هي مطبوعة في ذيل كتاب "التعريفات للجرجاني"، ومنها نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم 131 تصوف مجاميع 764 و765.

[372]) المصدر السابق ص 12، ص 13.

2 /جمالية الصورة

يمتاز النص الصوفي بجمال المجاز والاستعارة وكناية واعتماد الإشارة عوض العبارة و الرمز و غير ذلك إن المقاربة اللغوية – المصطلحية تنصف الصوفية وتدرك بعضا من حقيقة خطابهم، ويمتاز أدب الصوفيين بروائع ما اشتمل عليه من التمثيل والتشبيه والخيال والتصوير، يقول ذو النون المصري245 هـ :" لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه"، ويقول الشلبي في المحبة: "كأس لها وهج إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت"، ويقول الروزباري 369هـ :" الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت"، ويقول يحي بن معاذ 258هـ : الجوع نور، والشبع نار، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق، ولا تطفأ ناره حتى يحترق صاحبه. فالصوفية يستعملون كل الآليات اللغوية المعروفة، والتي إن أنكرناها فإن كل الخطابات سيكتنفها الغموض، وتصبح دلالتها معرضة إلى أن تحمل على غير محملها، ومن هذه الآليات المجاز والاستعارة والكناية والعام الذي يراد به الخاص، والخاص الذي يراد به العام واعتماد الإشارة عوض العبارة إلى غير ذلك، ففي لسان القوم من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيرهم، ولهذا يقولون :" نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة" والإشارة لنا

والعبارة لغيرنا ". وهدا ما جعل الباحثين يسهرون ويختصمون في معاني الصوفية :فمنهم من أخد بظاهر عباراتهم.

وأخرون: نظروا إلى مقاصدهم ومغزاها، فصوبوا تلك العبارات وصححوا الإشارات.

يقول أحمد حاجي من جامعة ورقلة الشعر الصوفي شعر واضح المعالم، ولكن قصورنا النقدي وقف بيننا و بين القراءة السليمة للنصوص الصوفية،إذ أرى أن هناك نوعين من الخطاب :الأول باطني والثاني ظاهري،فلذلك يقف القارئ مشدوها أمام النصوص الصوفية.

ما هي الأسس التي نعتمدها في قراءة النص؟-.،مشروع أبحث فيه منذ زمن،وصلت فيه إلى قناعات بوجود نظام الفجوات في النص،و عليه تبدأ رحلة المعنى. فمن هذه الأمثلة قول الشاعر:

يامن يراني و لا أراه وكم ذا أراه و لا يراني

فالفجوة الاولى بعد الفعل أراه،و التقدير أراه غفورا،أما الفجوة الثانية فهي بعد الفعل يراني و التقدير يراني مذنبا،فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

و قول الشاعر مثلا :

لولاه ما كنا ولا نحن ما كانا

أي في صدر البيت يقصد الخلق،أما في العجز فالتقدير و لولا نحن مستغفرين ما كان غفارا.

وفي قول الصوفي :أنا الله، فالقصد ليس التحقق، أي تحقق الذات الإلهية أي فكرة الحلول بل محمولة على معنى آخر ،و هو حلول الصفات الإلهية =المحدودة =

لتعلقها بالبشرية،من السمع والبصر والقدرة، و ذلك واضح من خلال الحديث القدسي

"لا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها..." فكل شيء في الخطاب الصوفي مبرر و له مسوغاته¡.

ومن الشعراء الجزائريين الدين ظهرت لديهم ملكة الابداع في الصورة، محمد العيد آل خليفة الدي يعدمن رواد الشعر العربي الحديث، ومهما اجتهدنا في تبيان أهمية شعره فلن نقول أكثر مما شهد به رئيس العلماء وشيخ الأدباء البشير الإبراهيمي (ت 1965 م) الذي قال) :رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من آثارها – القصائد الغر، والمقاطع الخالدة، شعره – لو جمع – سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لأطوارها)(i). وكان محمد العيد جديرا بكل ما نال من ألقاب تدل على رسوخ القدم في ميدان الشعر، فقيل عنه شاعر النهضة الجزائرية وشاعر الشمال الإفريقي. وخير دليل على صحة هذه الأوصاف تلك الحياة الصاخبة التي عاشها، وكانت نابضة بالشعر والجهاد الفكري.ومن المناسبات التي احتفي بها محمد العيد وخلدها بشعره في عدة قصائد ذكرى المولد النبوي الشريف ومنها قصيدة (سلوا التاريخ)[i] التي تجاوز فيها الحديث عن الذكرى إلى الدعوة إلى التحرر وفي مباركة أعمال وفود الوعظ والإرشاد وتحية أهل العلم والعلماء نقرأ له عشرات القصائد والمقطوعات، ومنها (قصيدة تحية العلماء)[i] التي يقول فيها:

طلعتم علينا كالكواكب في الدجى وسرتم إلينا كالسحائب في الجدب
بسطنا لكم منا قلوبا حفية فدوسوا عليها لا تدوسوا على التراب
وقمنا وللآذان منا إصاخة إليكم فهاتوا من حديثكم العذب

والتي ترجم معظمها تراثه الشعري المبثوث في ديوانه الذي حوى مائتي نص شعري أغلبه قصائد طوال ,كان فيها محمد العيد من أقوى الشعراء الجزائريين (تمثيلا للشعر العربي الصميم في صياغته ونظمه)(i).

وكان الشاعر "محمد العيد" واقعاً تحت مؤثرات البيئة الاجتماعية ، التي كانت في معظمها بيئة دينية محافظة ، فجمع في تكوينه الفكري ما بين مبادئ الاصلاح التي كانت بذورها الأولى قد غرست في نفسه قبل سفره الى تونس، وبين النزعة الصوفية التي انتقلت اليه وراثة واكتساباً ، من أسرته بوجهٍ عام ومن أبيه بوجه خاص والذي كان صوفياً على الطريقة التّجانية.

الخاتمة

إن مساهمة الصوفية في إثراء تاريخ هده الأمة يشمل الأدب و الفن والتحرير برجال سجلوا بحروف من نور أمجاداً وبطولات لابد للأجيال أن تعيها. إن الفضل الأول في تكوين هذه الفئات يعود إلى المدرسة الروحية الخالدة التي أنجبت القواد العظماء أمثال الأمير عبد القادر الجزائري و بوعمامة وفاطمة نسومر .... كانوا جميعاً نماذج رائعة من التجرد والإخلاص إنهم ورثة النماذج من السلف الصالح من أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسواهم. بعد... إننا اليوم بحاجة ماسة إلى إعادة كتابة تاريخ مناضلينا بصورة دقيقة والتركيز على الناحية الروحية التي فجرّت في أبطالنا طاقات لا حدود لها. إن الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يحدث من الخراب في الأرض وفي الأجسام ما أحدثه في القلوب والأرواح والأفهام فقد أصبح الجزائريون بما تسرب إلى بواطنهم يجهلون أنفسهم ولا يعرفون من حقيقة أمرهم شيئاً. واني أعتقد أن التصوف الصحيح هو الذي يوحد رؤية وهدف الأمة .ويجب أن نحذر ممن عَمد من بعض الدعاة إلى تشويه ناحية مهمة في ميدان التصوف فيما يعسر فهم ذلك على غير المطلع المتضلع في دراسة هذا العلم والإحاطة به.

إن فهم التصوف اليوم يتطلب الرجوع إلى المصادر الأساسية بعيداً عن المؤلفات التي طالعنا بها العصر الحديث فجاء أغلبها استشراقاً بعيداً عن الواقع والحقيقة إذ ليس التصوف خمولاً ولا انهزاماً كما ادّعوا وليس التصوف تواكلاً وهواناً كما زعموا إن التصوف قوة وبأس ونضال ونفس ملهمة عاملة إنه تصعيد بالحياة إلى أعلى، وارتفاع بالقيم الإنسانية إلى ما هو أرفع وأسمى .ومهما يكن من أمر فإن التصوف جزء من الأجزاء التي تألف منها تراثنا ،و خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الإسلامية لعوامل النشوء والارتقاء و التراجع والانحطاط على أن هذا لا يعني أن الحياة الروحية

الإسلامية لم تعدم بعض النفوس الصافية والقلوب الطاهرة التي كانت وما تزال تظهر من حين إلى حين. وأرجو أن أكون قد وفقت ولو قليلاً في إلقاء الضوء على هذا الجانب من التصوف.

الفهرس

المدخل

اشكالية المفهوم

1/مفهوم الجهاد

2/مفهوم التنصوف

الأسس المعرفية بين الجهاد والتصوف

1/ الجهاد أساس التغلب

2/ التصوف أساس الوحي

3/الشعر أساس التعبير

الفصل الأول– مثالية المعنى الجهادي

1/ ابتغاء اظهار الدين

2/ عدم المبادرة بالحرب

3/ احترام السلم والدعوة اليه

الفصل الثاني – تنوع معنى الجهاد

1– المعنى النفسي

2/ المعنى السياسي

3/ المعنى القومي

4 / المعنى الديني

الفصل الثالث – مقاصدية المعنى الجهادي

1– المقصد الروحي التعبيري

2 – مقصد التضحية والفداء للفكرة

3 – المقصد الأخلاقي

الفصل الرابع– جمالية المعنى الجهادي

1/ جمالية اللفظ

2 /جمالية الصورة

المراجع والمصادر:

الكتب:

1 د أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي دار البصائر الجزائر الطبعة الأولى، 2009

2 الشيخ مصطفى إسماعيل لمدني النصرة النبوية على هامش شرح الرائية للفاسي

3 -محمد العيد آل خليفة: دراسة تحليلية لحياته، تأليف أ/محمد ابن سمينة

4 مقدمة ابن خلدون. دار إحياء التراث العربي، ط4

5 -د.أحمد شلبي: الجهاد في التفكير الإسلامي، (سلسلة دراسات في الحضارة الإسلامية) القاهرة 1968.

6 د.شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي: (العصر العباسي الأول). دار المعارف مصر 1972

7 ابن الجوزي. ت محمود فاخوري: صفوة الصفوة، بيروت دار المعارف ط 3 1985

8 -الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دمشق دار الفكر. ج10.

9 ابن خلكان. ت إحسان عباس. وفيات الأعيان، بيروت 1977 ج(3)

10 - عبد الرزاق البيطار. ت. محمد بهجت البيطار حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، مطبعة المجمع العلمي العربي ج2 دمشق 1963.

11 - محمد عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية ج1 الإسكندرية 1903.

12 - كتاب الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي.

13 - حقائق عن التصوف

14 - د/ ممدوح حقي: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، دار اليقظة بيروت.

15 – الوصايا: لابن عربي. (مؤسسة الأعلمي، بيروت د.ت) قوت القلوب: لأبي طالب المكي. (ط الميمنية، مصر 1310 هـ) ج1
16 – الغزالي: إحياء علوم الدين. (دار الفكر، دمشق 1994) ج4
17 – لابن عربي الفتوحات المكية، (دار صادر، بيروت د.ت)
18 – أحياء علوم الدين ج4
19 – إبراهيم الجمل الفتوة في الإسلام وصلة الفتوة بالتصوف. (نهضة مصر 1992).
20 – الهجويري: كشف المحجوب، (القاهرة 1976).
21 – علي سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (دار المعارف، مصر 1978).
22 – إحياء علوم الدين ج4.
23 – أبي عبد الرحمن السلمي طبقات الصوفية، (دار الكتاب النفيس، حلب 1986).
24 – تذكرة الحفاظ : للذهبي ج1
25 – تهذيب التهذيب: للعسقلاني ج1
26 – لابن سعد: الطبقات الكبرى، (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت) ج3
27 – الإمام أحمد بن حنبل الزهد، (دار الدعوة ، الإسكندرية 1987)
28 – لابن عبد ربه ج6: العقد الفريد، الإحياء: ج4
29 – الجاحظ: البيان والتبيين، (القاهرة 1948) ج1
30 – الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، (بيروت 1993).
31 – الزيلي الحنفي: كنوز الأولياء، (مخطوط بمكتبة الأسد، رقم 2927).
32 – مشاهير علماء الأمصار
33 – أبي نعيم: حلية الأولياء، (بيروت 1985) ج6
34 – اليافعين: روض الرياحين في حكايات الصالحين، (مط الإبراهيمية، مصر د.ت).

35 - ابن كثير: البداية والنهاية (بيروت 1966) ج10
36 - سير أعلام النبلاء ج6 ص
37 - تهذيب ابن عساكر ج6
38 - الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، (دار الكتب العلمية، بيروت د.ت) ج10
39 - المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، (مصر 1937)، ج1
40 - ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب. (دمشق 1988) ج10
41 - أمينة بيطار: الحياة السياسية في بلاد الشام، (دمشق 1980)
42 - ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، وفيات 237 هـ
43 - ابن عساكر: تاريخ دمشق، (ط مجمع اللغة العربية، دمشق 1997)، المجلد
44 - الزاهد العنسي أبو سلمان الداراني: الرياض شحادة.(دمشق 1997)
45 - أبو يزيد البسطامي: لعبد الحليم محمود، (بيروت د.ت)
46 - ابن تيمية: شرح حديث النزول، (بيروت 1977).
47 - روض الرياحين في حكايات الصالحين.
48 - شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، (دار المعارف. نصر د.ت).
49 - محمد بن عثمان الحشائشي: جلاء عن طرابلس الغرب، تحقيق على مصطفى المصراتي، لبنان
50 - اقليم توات، تاريخ الجزائر الثقافي 254/4، وهوعنده (احمد التواتي)
51 - اعيان المغاربة لقوفيان.
52 - مواجهات ثقافية في الجزائر المستعمرة/ ايفوان توران.
53 - ديوان محمد العيد أل خليفة
54 - لسان العرب: 9\200، والقاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر-بدون طبعة وتاريخ)3\169.

55 - عمر بن محمد السهروردي: عوارف المعارف، (القاهرة: مكتبة القاهرة- 1393هـ) رقم الطبعة بدون.
56 - علي بن عثمان الهجمويري: كشف المحجوب، دراسة لا تعليق د. إسعاد عبد الهادي قنديل مراجعة د. أمين عبد المجيد بدوي (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة و النشر -1980.
57 - تلبيس إبليس
58 - شيخ الإسلام ابن تيمية: الصوفية والفقراء، تقديم د. محمد جميل غازي. (جدة: مكتبة المدني ومطبعتها).
59 - د. صابر طعيمة: دراسات في الفرق، ط2(الرياض: مكتبة المعارف-1404هـ)
60 - عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن خلدون تعليق وتقديم. محمد بن تاويت الطبخي: شفاء السائل لتهذيب المسائل.
61 - تاريخ آداب اللغة العربية ط1(بيروت: دار الفكر-1416هـ) 364/2
62 - لأبي علي بن سينا: الإشارات والتنبيهات، تحقيق د. سليمان دنيا، ط2 (مصر: دار المعارف -1986م)
63 - د. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي (بيروت: دار العلم للملايين -1392هـ)
64 - جواد المرابط التصوف والأمير عبد القادر الجزائري، صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة سنة 2007 بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.
65 - انطون غطاس كرم: "الرمزية والأدب العربي الحديث" ص101. ط1 دار الكشاف –لبنان سنة 1949.
66 - الأنموذج الفريد المشير الخالص التوحيد في نقطة بسم الله الرحمن الرحيم أحمد بن مصطفى العليوي ط2 المطبعة العلوية الجزائر سنة1926.
67 - ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج 3
68 - محمد العيد آل خليفة: الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1967، المقدمة.

69 - حمد مصايف: فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1981.
70 - - محمد العيد آل خليفة: دراسة تحليلية لحياته، تأليف أ/محمد ابن سمينة.
71 - عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ش و ن، الجزائر 1981.
72 - تودوروف، نقلاً عن فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب 2003.
73 - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ج2، 1973.
74 - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، بيروت 1990.
75 - محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت 1985.
76 - نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل.

المجلات:

1 مجلة المعرفة العدد 328 مقال مطول بعنوان "الصوفية بين ترك الجهاد ووهم المجاهدة.
2 ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بمولى مجاجة، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1534.

المقالات:

1 مقال إبراهيم بن أدهم. مجلة التراث العربي. العددان 11- 12 عام 1983 ج 10 ص 44(10) البداية والنهاية، ابن كثير. بيروت 1966. دار المعارف. ط(1 (10).
2 التربية الجهادية في ضوء الكتاب والسنة مقال لعبد العزيز بن ناصر الجليل

3 -مقال: (حياة الناس في مدن الثغور)، مجلة دراسات تاريخية: العدد 4 لعام 1981.

4 رسالة بخط يد بوعمامة، تركناها على أصلها بدون وضع مصطلح (كذا

Summary: (English)

The sophist movement took an important part in enriching The history of algeria in many fields for instance ; l literature, art and revolution.

Many leaders who belonged to this movement snchas El Emir abd-el-kader El Djazairi Chikh Bouamama and Lalla Fatima Nsoumer have registered their names, their souls and their brave fights against colonization.

The new generation should take into account all their sacrifices and work hard to protect this precious land.

Cey words : sophisms- movement- fight-structural school -great leaders- sacrifices art of literate-liberation revolution

Le résumé:(français)

La participation de mouvement dans l'enrichissement des valeur de l'histoire de l'Algérie dans plusieurs domaines comme la littérature, l'art et la révolution a été prise des leadeurs tels que: El Emir abdelkader El Dzairi, chich Bouamama et lalla Fatima Nasoumer.

Cette élite a enregistré ses braves sacrifces ses amés pour libérer cette précense nation.

Les mots clés: sophisme - l'art littéraire – la libération de la nation – leadeurs les grands puissent

الملخص

إن المساهمة الصوفية في إثراء تاريخ هذه الأمة يشمل الأدب و الفن و التحرير برجال سجلوا بحروف من نور أمجاد و بطولات لا بد للأجيال أن تعيها. إن الفضل الأول في تكوين هذه الفئات يعود إلى المدرسة الروحية الخالدة التي أنجبت القواد العظماء أمثال الأمير عبد القادر الجزائري و بوعمامة و فاطمة نسومر الذين حافظوا على هذه الأمة.

الكلمات المفتاحية : الجهاد – الصوفية – الفن الأدبي – تحرير الأمة – المدرسة الروحية –القادة الصوفية – إثراء تاريخ الأمة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -
كلية الآداب واللغات
قسم : اللغة العربية وآدابها

شعبة بنية النص الصوفي في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر

مذكرة لنيل شهادة الماجستير موضوعها :

المعنى الجهادي في النص الصوفي الجزائري

إعداد الطالب الباحث : جعاط محمد

إشراف الأستاذة: د/ خناثة بن هاشم

أعضاء لجنة المناقشة

د محمد بن عمر – أستاذ التعليم العالي–..... . رئيسا (جامعة تلمسان)

د خناثة بن هاشم.–أستاذ محاضر(أ)–.....مشرفة ومقررة (جامعة تلمسان)

د بورديم عبد الحفيظ. .–أستاذ محاضر(أ)–.....مناقش (جامعة تلمسان)

د نورية شيخي –أستاذ محاضر(أ)–..... مناقش (جامعة تلمسان)

د أحمد حمودي –أستاذ محاضر(أ)–..... .مناقش (جامعة مستغانم)

السنة الجامعية 2011-2012 م – 1433-1434هـ

يحتلّ التصوف جزءاً هاماً من تراثنا العربي الإسلامي بدليل وجود عدد كبير جداً من مخطوطات علم التصوف تزخر بها مكتبات العالم ولا غرابة في ذلك فقد شاع التصوف في العصور الإسلامية على اختلافها وأصبح في الجزائر اتجاهاً شعبياً مشكّلاً بذلك تياراً فكرياً غالباً منجباً كوكبة من العلماء ممن خلّفوا آثاراً قيّمة لا تزال تعتز بها المكتبة الجزائرية و العربية.

ومن قراءتي لما يكتبه بعض المعاصرين في هذا الميدان وجدت أن فريقاً منهم قد أصدر أحكاماً عشوائية وعمل على توجيه النقد غير المتبصر فزعم أن التصوف خمول وكسل ومظهر من مظاهر الضعف فزل بذلك أقلامه ومن أمثلة ما كتبوا "والصوفية لم نر لهم جهاداً ولم نقرأ لهم استشهاداً"(1) وقد تزعم هذا الاتجاه بعض المستشرقين ومشى على خطاهم في إشاعة هذا المعنى عصبة من الباحثين العرب المحدثين فصار ذلك هو الفهم السائد لدى الكثيرين فوجدت أن تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة لهي ضرورة علمية وتاريخية حقة وضرورة قومية إنسانية. فقد استطاعت الصوفية الجمع بين الجهاد القتالي وجهاد النفس. لأن هناك ترابطاً وثيقاً بينهما فالجهاد الأكبر تهذيب النفس وتوجيهها تجاه الخير وهي بذلك تستعد لملاقاة العدو ومنازلته. أما النفوس التي انحرفت وسارت مع الهوى فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تصارع المعتدين(2)، وقد كانت الظروف المحيطة دافعاً

---

[1] --مجلة المعرفة العدد 328 مقال مطول بعنوان "الصوفية بين ترك الجهاد ووهم المجاهدة

2- الجهاد في التفكير الإسلامي، د.أحمد شلبي. (سلسلة دراسات في الحضارة الإسلامية) القاهرة 1968 ص10
وحديث قول الرسول (ص) عن جابر(رض) رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" رواه الديلمي . راجع كشف الخفاء للعجلوني ج1 ص424.

قوياً للتركيز على طريق الحق والهداية. ويوضِّح ذلك ابن خلدون عند كلامه عن نشوء علم التصوف قائلاً: "وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"(3) فقد انتشرت نزاعات ملأت تاريخ العصرين الأموي والعباسي وغرق بعضهم في ملذات الدنيا وكان لهذا الفعل رد فعل من العبَّاد والزهَّاد فسلك قسم منهم طريق الوعظ والتذكير بالحياة الأخرى.

واندفع القسم الآخر للمرابطة في العواصم والثغور التي وجدوا فيها راحةً لنفوسهم وتخليصاً من مشاهد تطاحن الأحزاب والفتن والإقبال على الدنيا. وقد تسنى لهم في هذه الثغور ممارسة رياضتهم وجهادهم فأخذوا يستشعرون السعادة والرضا.

وهم بذلك كما يقول: د.شوقي ضيف يصححون فكرة شاعت عن زهَّاد المسلمين وعبَّادهم أنهم كانوا سلبيين ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة وهو ظنٌ واهمٌ فإنَّ زهَّاد المسلمين لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلباً للاستشهاد في سبيل الله4.

ويفرد لنا ابن الجوزي[5] فصلاً خاصاً في كتابه (صفوة الصفوة) للزهَّاد والصوفية الأوائل الذين رابطوا في العواصم والثغور في القرن الثاني للهجرة منهم: أحمد بن عاصم الأنطاكي وكان

3 - مقدمة ابن خلدون. دار إحياء التراث العربي، ط4، ص467.

4تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) د.شوقي ضيف. مصر، دار المعارف 1972، ص403.

5-- ولد العلامة ابن الجوزي "بدرب حبيب" الواقعة في بغداد، واختلف في تاريخ ولادته:

يقال له (جاسوس القلوب) لحدة فراسته ويصفه بأنه من متقدمي مشائخ الثغور ومنهم أبو يوسف الغسولي الذي كان يغزو مع الناس بلاد الروم ركدلك **محمد بن موسى التلمساني** . [6]

و كثيرون أمثال أبي إسحق الفزاري وعيسى بن أبي إسحق السبيعي ويوسف بن إسباط وأبي معاوية الأسود7.

ومن أقران آنفي الذكر. ابن المبارك[8] الذي كان "كثير الانقطاع محباً للخلوة"و . وكان لا يخرج إلا إلى حج أو جهاد وقيل له ألا تستوحش فقال: "كيف أستوحش وأنا مع النبي وأصحابه".

ويعدّ إبراهيم بن أدهم إمام المتصوفين الروحانيين يذكره ابن عساكر بأنه كان فارساً شجاعاً ومقاتلاً باسلاً رابط في الثغور وخاض المعارك على البيزنطيين العدو الرئيسي للدولة الإسلامية الناشئة10. وقد أثنى على ورعه وزهده الإمام أحمد بن حنبل والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم واختلف في وفاته والأصح ما ذكره ابن كثير أنه توفي وهو مرابط في جزيرة

قيل: سنة 508، وقيل سنة 509، وقيل سنة 510 هجرية، والأرجح أنه ولد بعد العشرة كما يظهر ذلك في بعض مؤلفاته في الوعظ حيث يقول: أنه بدأ التصنيف سنة 528هـ، وله من العمر 17 سنة

6-محمد بن موسى التلمساني (606_683هـ=1209_1284م) القدوة الزاهد أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان المزالي التلمساني شمس الدين، ولد بتلمسان 606هـ=1209م وأخذ العلم منها، ثم انتقل إلى مصر له مؤلفات عديدة منها: أعلام الاجتهاد والعباد أهل اللإجتهاد بفصل الرباط والجهاد.

7صفوة الصفوة، ابن الجوزي. ت محمود فاخوري. بيروت دار المعارف ط 3 1985 6-تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي. دمشق دار الفكر. ج10 ص157 د.ت.

8- عبد الله بن المبارك (ت 181هـ) قال عنه الخطيب البغدادي "وكان من الربانيين في العلم ومن المذكورين بالزهد.. خرج من بغداد يريد المصيصة –ثغر من ثغور الروم- فصحبه الصوفية..."

9 وفيات الأعيان، ابن خلكان. ت إحسان عباس. بيروت 1977 ج(3) ص32.

10انظر مقال إبراهيم بن أدهم. مجلة التراث العربي. العددان 11- 12 عام 1983 ج 10 ص 44(10) البداية والنهاية، ابن كثير. بيروت 1966. دار المعارف. ط(1 (10).

من جزائر بحر الروم سنة (مائة واثنان وستون هـ) وقد صحب إبراهيم وأخذ عنه الطريق شقيق البلخي .

وفي الجزائر لاحظ الخبراء الفرنسيون أن زعماء حركة الجهاد التي ألفت محاربتهم انطلقت من الطرق الصوفية وخاصة المرتكزة منها حول الزوايا التي كانت منذ قرون تعتني بالجهاد عند الخطر وتعتني بالعلم والتصوف عند السلم، ومن أبرز تلك الطرق في القرن الماضي القادرية والرحمانية**11** وقد أنجبت الأمير: عبد القادر لجزائري *الذي يعتبر (بلا منازع) شيخ المجاهدين في العصر الحديث فضلاً عن كونه من كبار صوفية عصره، وقد ترجم عبد الرزاق البيطار للأمير ترجمة عارف بفضله ونبله فقال: "هو الهمام الكامل العارف والإمام المتحلي بأعلى العوارف الراسخ القدم في العلم الإلهي والكاشف عن أسرار الحقائق حتى شهدها كما هي..."12.

إن المسلم الناظر في أحوالنا اليوم وما هي عليه من ضعف إيمان، وركون إلى الدنيا، وترهل في الهمم والأجسام، ويأس وإحباط ليَشعُر بالخطر على نفسه وعلى أمته، ويفرض عليه ذلك المبادرة مع إخوانه في وضع برامج علمية وعملية لإعداد النفوس وانتشالها من نومها أو موتها، وإحياء الجهاد وتحديث النفس به، ومما يجب لفت الأنظار إليه في مجال الإصلاح: تقديم كل ما يتعلق بتقويم الفكر، وتصحيح التصور، وتصويب منهج النظر والعمل. فهذا بلا ريب هو الأساس المكين لكل إصلاح يرتجى. إذ من غير المعقول أن يستقيم العمل على منهج سليم، والفكر غير مستقيم. كما قال الشاعر: متى يستقيم الظل والعود أعوج؟

11- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار. ت. محمد بهجت البيطار دمشق 1963 مطبعة المجمع العلمي العربي. ج2 ص 883.

*1805 -1885 م)

12تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، محمد عبد القادر الجزائري. الإسكندرية 1903 المطبعة التجارية ج1، ص9 .

فمن ساء تصوره لأمر ما، فالمتوقع أن يسوء سلوكه في شأنه، فإن السلوك أثر للتصور، حسنا أو قبحا. يقول الشاعر محمد بن سليما[13]:

وَلاَتَكُنْ رَجُلاً بِالسُّوحِ[14] مَوْقِفُهُ وَكُنْ عَلِيقًا بِالسِّرِّ فِيكَ قَدْ بَطُنَا

فَإِنَّهُ الطَّلْسَمُ[15] الَّذِي بِهِ عَلِقَتْ كُلُّ الطَّلاَسِمِ، وَهُوَ الكُلُّ يَشْمَلُنَا[16]

ومن هنا كانت المعركة الفكرية ـ التي تعنى بتصحيح الفكرة المعوجة، والمفاهيم المغلوطة ـ لها الأولوية وحق التقديم على غيرها. وهو من الجهاد باللسان والبيان، الذي ذكره الحديث النبوي: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم". [17]

وللمعركة الفكرية مجالان أساسيان :

الأول: خارج الساحة الإسلامية، مع الملاحدة والمنصرين وكثير من المستشرقين الذين يهاجمون الإسلام: عقيدة وشريعة، وتراثا وحضارة، ويحاربون أي نهضة أو بعث على أساس الإسلام.

الثاني: داخل الساحة الإسلامية نفسها، لتصحيح الاتجاه في فصائل العمل الإسلامي، وترشيد مسيرته، وتصويب حركته، حتى تسير في الطريق الصحيح للهدف الصحيح. وسنقصر الحديث عليه، فإن إصلاح الداخل هو الأساس، وله الأولوية.

*التيار الخرافي يقوم على أسس أو خصائص يتفرد بها، منها:

---

[13]- هو أبو محمد محمد بن عودة بن سليمان بن عبد الله المستغانمي مولداً ومنشأً قد كانت أسرته على جانب كبير من العلم والصلاح والتقوى ، كإبن عمه الصوفي الشهير الشيخ "قدور بن سليمان" وخاله الإمام "قارة مصطفى" مفتي بلدة مستغانم . حفظ في بدايته القرآن العظيم ثم تاقت نفسه إلى تحصيل العلوم الشرعية فأخذ نصيبه منها على يد خاله السالف الذكر قارة مصطفى المتوفى سنة 1957.

[14]-جمع ساحة.

[15]-هو السحر

[16]- الشعر الديني الجزائري دعبد الله الركيبي ص 57

[17] - رواه النسائي وغيره

-الخرافة في الاعتقاد -والجمود في الفكر - والتقليد في الفقه -والسلبية في السلوك.

*التيار الشكلي وهذا له خصائص غلبت على أكثر أتباعه تميزه أيضا، منها:

الجدلية في العقيدة - و الشكلية في العبادة - والظاهرية في الفقه - والجزئية في الاهتمام - والجفاف في الروح - والخشونة في الدعوة - والضيق بالخلاف.

*تيار الرفض والعنف و يقوم على رفض المجتمع كله بجميع مؤسساته، وله . رغم تميز جل أفراده بالحماس والإخلاص . خصائصه أيضا، منها:

- الشدة والصرامة في الالتزام بالدين - والاعتزاز بالذات اعتزازا يؤدي إلى نزعة الاستعلاء على المجتمع وسوء الظن بالآخرين جميعا - وضيق الأفق في فهم الدين، وفهم الواقع، وفهم السنن الكونية والاجتماعية - و استعجال الأشياء قبل أوانها و المسارعة إلى التكفير بغير تحفظ - واتخاذ القوة سبيلا إلى تحقيق الأهداف.

*التيار الوسطي والذي يقوم على التوازن في فهم الدين والحياة والعمل لتمكين الدين، وله خصائص أيضا تميزه عن سواه، منها تأكيده وتركيزه على فقه الدين واتخاذ الجهاد سبيلا للدفاع عن حرمات المسلمين وديارهم .

وقد تبنى الصوفية هذا التيار الوسطي فكان طريقهم ،وبمثل هذا الذوق وصلوا إلى الاطمئنان والرضا في ظلال الحب الإلهي، ورأوا متعاً روحية دونها متع الحياة وشهواتها. وحسبهم أنهم يُسَرّون مع الله، وينعمون بقربه، ويشعرون بفضله وجوده {رَضِيَ اللهُ عنْهُم ورَضُوا عنْهُ} [البينة: 8} .[يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54]. فاختارهم بعد ما أحبّهم ورضي عنهم، أولئك خلاصة خلقه، وخواص أحبابه، فقيل فيهم:

قومٌ أَخلصوا في حُبِّه فاختار هم ورضي بهم خُدَّاما

قومٌ إذا جَنَّ الظلامُ عليهمُ أبصرْتَ قوماً سجداً وقياما

يتلذذون بذكره في ليلهم ويكابدون به النهارَ صياما

فسيغنمون عرائساً بعرائسٍ ويُبَوَّؤن من الجِنان خياما

وتَقَرُّ أعينُهم بما أُخفِي له وسيسمعون من الجليل سلاما

والجهاد دليل المحبة الكاملة ·وفي هذا يقول· أبو مدين شعيب التلمساني: 18

أَهْلُ المَحَبَّةِ بِالْمَحْبُوبِ قَدْ شُغِلواُ وَفِي مَحَبَّتِهِ أَرْواحـهُمْ بَذَلُوا

وَخَرّبُوا كُلَّ ماَ يَفْنىَ وَ قَدْ عَمَرُوا ما كاَنَ يَبْقىَ فياَ حُسْنَ الذِّي عَمِلُوا

لَمْ تُلْهِهِمْ زِينةُ الدُّنْياَ وَزُخْرُفهاَ وَلاَ جناَهاَ وَلاَ حِلْيٌ وَلاَ حُلَلُ

هاَمُوا علَى الْكَوْنِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ طَرَبٍ وَماَ اسْتَقَلَّ بِهِمْ رَبْعٌ وَلاَ طَلَلُ

فإن المحبة مستلزمة للجهاد؛ لأن المحب يحب ما يحب محبوبة، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك، وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم؛ إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له"(19)قال الشبلي :20

---

18 – ديوان أبي مدين: 68

19 –"مجموع الفتاوى": (10/57-58) باختصار.

20 – ذكر كثير من مؤرخي الصوفية ان اسمه دلف بن جحدر الشبلي بينما ذهب آخرون الى ان اسمه جعفر بن يونس ، وقد روى السلمي هذه التسمية الاخيرة في طبقاته عن احد معاصريه ، ورأى ذلك مكتوبا على قبر الامام الشبلي ببغداد.

وأيا كان فالكلا متفق على الكنية واللقب اللذين اشتهر بهما سيدي ابو بكر الشبلي . وقد ولد ببغداد سنة 247 ولحق بربه سنة 324 عن سبع وثمانين سنة ، وهو خراساني الاصل ,وقد نشأ في بغداد وكان والده حاجب الحجاب للخليفة الموفق ، فتربى الشبلي في ظلال النعمة والمكرمة أخذا بنصيبه من الدين والدنيا ، حيث تفقه على مذهب الامام مالك واشتغل بعلم الحديث وروى منه الكثير ، ومن مروياته هذا الحديث الذي ذكره السلمي باسناده عن ابي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لبلال : إلق الله فقيرا ولا تلقه غنيا.قال : يا رسول الله كيف لي بذلك ؟

علم التصوف علم لا نفاد له علم سني سماوي ربوبي

فيه الفوائد للأرباب يعرفها أهل الجزالة والعلم الخصوصي

وقد عبر الصوفية على هذا العلم في قالب أدبي فني خاص فحاولوا في أثناء إبداعه الشعري تقديم الانفعالية التي لا وجود موضوعيا لها الا بعد تجسيدها في تشكيل لغوي، ومن ثم فان تذوقها وفحص عناصرها ومكوناتها يتم عبر هذا الوسيط اللغوي الذي يتميز بخصائصه الأسلوبية.

أما ما يتم في ذهن الصوفي وقلبه في أثناء الإبداع فهو أمر لا يمكن للناقد تتبعه ما دام العمل الإبداعي لم يتشكل لغويا، وهو الآخر له خصوصيته التي يعني بها غير النقاد.

ويبذل الصوفية جهودا مضنية من اجل أن يكون النص الأدبي محيطا بالتجربة الانفعالية ومعبرا عنها وشاملا لجوانبها المتعددة، غير أن هذا لا يتأتى– في الحقيقة– إذ تتحول اللغة إلى معيق يمنع الصوفي من التعبير عن التجربة الانفعالية بما تنطوي عليه من كلية وشمول، ولذلك نلحظ شكاوى الصوفية التي تؤكد أن هناك عائقا يمنع ما يريدون التعبير عنه، وما يسعون إلى توصيله بحيث تكون التجربة واضحة وجلية وكاملة، وعندما يحاول الاديب، يتشتت الوضوح ويتبدد التكامل.

إن تجربة الصوفي الانفعالية تجربة ذات طبيعة كلية تامة قبل تشكيلها اللغوي، يحس بها ويعيها ويسيطر عليها، وحين يعمد إلى تقديمها من خلال سياق (زماني/ لغوي) يضطر إلى

قال ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ. قال : يا رسول الله كيف لي بذلك ؟ قال : هو ذاك والا فالنار. المصدر : من كتاب بحار الولاية المحمدية في مناقب اعلام الصوفية للاستاذ الدكتور جودة محمد ابو اليزيد المهدي ، ص 370–ص 378.

إخضاع تجربته الانفعالية الكلية الشاملة إلى المحدد والجزئي، أي إخضاع الكلي إلى ألزماني، لان التشكيل اللغوي لا يتم وجوده إلا بترتيب الكلمات وانتظامها بكيفية معينة، فهي خاضعة لقوانين اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ويحاول الصوفي التحرك في إطار ماسبق خلقه، أي انه يحاول تقديم تجربته التي تتسم بكونها مطلقة وكلية وفردية من خلال جبرية اللغة، أي من خلال جبرية مفردات وتراكيب لم يخلقها الصوفي ، وقوانين لم يسهم في تأسيسها أو توليدها، ولذلك يخضع الكلي والمطلق للمحدد والجزئي.

وفي ضوء هذا فان التشكيل اللغوي يظل عاجزا عن تقديم ما يروم الشاعر تقديمه، ولكنه مضطر على قبوله، لأنه ليس في أمكانه طريقة أخرى سوى تقديم هذه الصورة المعبرة عن عالمه هو، ولذلك يحس الصوفي أن هناك بونا بين تجربته الانفعالية وبين ما يقدمه في النص الصوفي بوصفه معطى يعبر عن هذه التجربة، وعلى هذا الأساس فان النص يظل كيانا غير أمين للتعبير تماما عن تجارب الأدباء.

إن الصوفي في أثناء خلقه النص يتفاعل مع المفردات بكيفيات خاصة، أقول مجازا يتفاعل، ليس بوصفها أحجارا، وإنما بوصفها مخلوقات، وكأنه يحاول إعادة خلقها من جديد، ومن ثم تتلون المفردات والتراكيب في ضوء:و–رؤيته، و– تجربته، وان المفردة تشع وتوحي بإيحاءات خاصة لدى الكاتب، ولا يمكن لهذه الإيحاءات أن تتماثل أبدا مع إنسان آخر، بسبب المخزون النفسي – وهو مخزون فردي خاص قطعا– ولما يتصل بهذا المخزون من رواسب فردية يتصل جزء كبير منها باللاشعور، إن حدثا واحدا إمام شخصين يترك آثارا متفاوتة فيهما، بسبب كيفية تفاعلهما معه من ناحية، وبسبب تفاوت العالمين الداخليين

لهما من ناحية أخرى، ويرجع ذلك إلى تلك الكوامن القارة في أعماق كل واحد منهما، وهي التي تتفاعل مع الحدث، ومن ثم في التعبيرعنه.

ان المتلقي يتفاعل مع التشكيل اللغوي، وليس مع تجربة الشاعر الانفعالية، وبما ان النص ليس امينا في نقل هذه التجربة يحدث اول سوء فهم لتجربة الشاعر بسبب النص، اي بسبب التشكيل اللغوي، واذا كان المبدع له خصوصيته في تجربته وكيفية ابداعه فان المتلقي هو الاخر له خصوصيته الفردية وله كوامنه الخاصة القارة في اعماقه، وحين يلتقي بالنص فانه يتفاعل بكيفية خاصة معه، ان اثر النص يتشكل ويتلون بحسب المثيرات اللغوية التي تترك ايحاءات خاصة لدى المتلقي ومن ثم تخلق تجربة انفعالية جديدة لديه، وهي قطعا ليست التجربة الانفعالية للاديب ان المتلقي لايتفاعل مع تجربة الاديب الانفعالية وانما يتفاعل مع وسيط لغوي غير امين في نقل تجربة الاديب، واكثر من هذا ان المفردات والتراكيب عند الاديب في هذا النص توحي بايحاءات خاصة ولذلك اختارها هو، ولكنها عند المتلقي توحي بايحاءات اخرى خاصة به، لايمكنها ان تكون هي باي حال من الاحوال ولذلك فان تلقي التجربة الانفعالية الجديدة يبتعد مرتين عن اصل التجربة الانفعالية للاديب، ان كل قراءة للنص المقروء هي فهم جديد له ولذلك فنحن لسنا ازاء نص واحد فيزيقيا، ولكننا ازاء اعداد لا حصر لها من النصوص المقروءة لان القراءة تحول الوجود الفيزيقي الى نص اخر ليس هو الوجود الفيزيقي –قطعا –وليس هو تجربة الاديب الانفعالية وانما هي تجربة جديدة للمتلقي اثارها النص ومن ثم تتفاوت طبيعة النص بتفاوت المتلقين وبتعددهم وتكرارهم. عندما اتهم ابن عربي بأنه يتغزل بكائن مادي غزلاً حسياً، شكّل هذا مناسبة ذهبية ليستجيب فيه الشاعر لمجنون اللغة، فقام بشرح ديوانه "ترجمان الأشواق": موضوع التهمة، على نحو أثبت فيه أن النص الصوفي اكتشف طاقات جديدة

للكتابة، وأن اللغة، بانفصالها التاريخي عن الشيء، لم تفقد الأمل في انبعاث جديد الرمز عند الصوفية.